الدكتور أحمد زياد محبك

الأعمدة والغزالة

قصص قصيرة

2009

مطبعة الأصيل حلب

العنوان: الأعمدة والغزالة
النوع : قصص قصيرة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
موافقة وزارة الإعلام:رقم6811 تاريخ 2009/1/9
دار النشر: الثريا ـ حلب **هاتف 3234225 ص.ب 5928**
المطبعة: مطبعة الأصيل ـ حلب
عدد النسخ: 1000
الغلاف الخارجي: نورة محبك
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
سنة الطبع: 2009

الحلم المنتظر

الرحلة دافئة وحنون
فيها أنداء من سحر غريب
وعطاءات من صمت عَطِر
كم يحلو السفر
والأيدي تلوح من بعيد
في سحابات من وعود
لم تقل شفاه النجوم شيئاً
ولم يبح بعطره الياسمين
وظلت الأوراق بيضاء حالمة
تنتظر حروفاً من أبجدية لن تخترع
ويبقى في الأفق طائر
يرف شوقاً إلى ما لا يحد
مساءات تبعده
وصباحات تدنيه
وهو أبداً معلق
لا يكفيه وعد ولا سفر
فالرحلة دائماً واعدة بحلم
قدره ...أن يظل الحلم المنتظر

قطعة شيكولاتة في باب الجنين

بعد ساعة من التجوال بعيد العصر مع ولده حامد بين العربات المزدحمة في ظل فندق أمير، استطاع أن يشتري عشر كيلوات من البندورة بخمس وعشرين ليرة، هي أرخص ما في السوق كله، ما كان يستطيع أن يشتري بخمس وعشرين ليرة غير كيلوين اثنين من البندورة الجيدة، لكنه استطاع أن يشتري عشر كيلوات بخمس وعشرين، لا بأس، فهي الأصلح للطبخ وهي الأطيب، حمل الكيس، شد ولده من يده، وأسرع إلى سوق اللحم. التفت إلى ولده، وقال له:

ـ أنت نجحت إلى الصف السابع، جئت بك معي يا ولدي حتى تتعلم الشراء، وتتعرف إلى السوق، نحن هنا في قلب المدينة، كل الناس يأتون إلى هذا السوق لشراء الطعام.

قال الولد:

ـ ولكنه بعيد عن بيتنا، لماذا لا نشتري من محل أبو عبدو القريب من بيتنا؟.

ـ لهذا جئت بك يا ولدي، الآن نحن في عطلة الصيف، ليس عندنا مدرسة، لا أنا ولا أنت، فلماذا لا نأتي كل يوم ونشتري من هذه السوق؟ الأسعار هنا كما رأيت أرخص، ولا سيما بعد العصر، في آخر النهار.

ـ وما اسم هذه المنطقة؟

ـ باب الجنين؟

ـ باب الجنين، نعم يا ولدي، هنا كانت تنهض أسوار حلب القديمة، هنا كانت المدينة تنتهي، وهنا كان ينهض باب يطل على سهول خضراء، يرويها نهر قويق، ولذلك سمي الباب باب الجنائن، ثم لفظت العامة الكلمة "الجنين"، لأنها أسهل، وجنوب المنطقة يقع هناك باب أنطاكية، وشمالها يقع قريباً باب الفرج، حيث تنهض دار الكتب الوطنية، وأمامها ساعة باب الفرج.

ـ تذكرتها، جئت بي مرة إلى دار الكتب، واستعرت كتاباً منها، وقد رحب بك مدير الدار، وقدم لك فنجان قهوة، وأعطاك جريدة، وأهداني كتاب قراءة، هو رجل مهذب جداً، أتذكر اسمه، هو خالد، أنا أحببت دار الكتب الوطنية.

ـ وسوف تحب باب الجنين أكثر، لأننا سنأتي إليه كل يوم لشراء الطعام.

ويشير الولد إلى فندق أمير، ويسأل:

ـ ما هذا المبنى يا بابا؟ هل هو مستشفى؟

ـ لا يا ولدي، هذا فندق، اقرأ في الأعلى اللوحة: فندق أمير.

ـ ولماذا بنوه هنا يا أبي؟ في الزحام وبين الباعة؟

يشد الأب الولد من يده، ويقول :

ـ هيا عجِّل، قبل أن تتحول البندورة إلى عصير.

ويدخلان سوق اللحم.

محلات وعربات وباعة متجولون، من بائع لحم على العربة يستطيع أن يشتري اللحم بنصف السعر الذي يباع به في المحل، هو لحم رديء، وغير مراقب صحياً، ولكن طبخه على النار سينفي عنه كل الشوائب، وهل اللحم المعروض في المحل وراء الزجاج مراقب المراقبة الصحيحة؟ أليس فيه مثل ما في اللحم المعروض هناك على الأرصفة، في النهاية لابد من التوكل على الله.

بخمس وسبعين ليرة فقط اشترى من بائع على الرصيف نصف كيلو من اللحم، نصف الكيلو نفسه سعره في المحل المقابل مئتا ليرة، اللحم في النهاية هو اللحم.

عبرا الشارع، وصلا إلى الرصيف أمام الفندق، وقفا في ظله، ينتظران الحافلة.

ـ بابا لماذا اشتريت اللحم من بائع على الرصيف، الأستاذ في المدرسة نصح لنا ألا نشتري الطعام من الباعة المتجولين؟!.

ـ أعرف هذا يا ولدي، وأنا أقول لطلابي مثلما قال معلمك، ولكن اللحم يا ولدي يغلى على النار ويُطبخ، لا تخف.

ماذا أقول لك يا ولدي؟ نحن المعلمين نقول ما لا نفعل، ونفعل ما لا نقول، هكذا تردّت أحوالنا، كنا قدوة للمجتمع، ومثالاً للأبناء والشباب، أصبحنا أضحوكة، تركنا المثال للمغنين والمغنيات ولاعبي الكرة، لم يعد للعلم ولا للشهادة قيمة، تم كسر مكانة المثقف، راتبه لا يكفيه ليعيش أكثر من عشرة أيام، يكفي أن تهز الراقصة خصرها ثلاث دقائق لتأخذ أكثر مما نأخذ في ثلاثة أشهر، الإذاعات كلها لها وقنوات التلفاز، هي المثل الأعلى، لاعب كرة قدم يباع بملايين الدولارات، ممثلة تفتح لها الحدود وتستقبلها كل العواصم، والمعلم يعيش ويموت من غير أن يعرف غير مدينته، نحن ....

الشمس لاهبة، والجو حار، والحافلة لا تصل، يمر بهم رجل في الخامسة والثلاثين، أصغر من والد حامد بعشر سنين، تظهر عليه أناقة متكلفة، وهو يشد ظهره، وفي طرف فمه سيكارة، ينفث دخانها بهدوء، رد شعر رأسه من وراء إلى أمام ليستر به صلعته، فكأن شبكة خيوط عنكبوتية لبست رأسه، شارباه أسودان مقصوصان بعناية، ذقنه حليقة، علق في حزامه حزمة مفاتيح، قد تبلغ الأربعين.

ـ أهلاً أحمد

ـ أهلاً أستاذ ماهر

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ نزلت مع ولدي حامد، لشراء طعام للأسرة.

ـ ولم تجد غير باب جنين لتشتري منه، وبعد العصر، لماذا لا تشتري من حارتك؟!.

ـ أنت تعرف، الأسعار هنا أرخص.

ويحاول أن يغير الحديث:

ـ هذا ولدي حامد، نجح إلى الأول الإعدادي، العام القادم سيكون معنا في المدرسة.

ـ ولكنه لن يكون في شعبتك، سنضعه في شعبة أخرى، لا يجوز أن يكون أبوه أستاذه.

يقبل أحمد الرد بضحكة هادئة، ثم يقدم المدير إلى ولده قائلاً:

ـ الأستاذ ماهر، مدير مدرستي.

ويسأل المدير وهو يمسح بيده رأس حامد:

ـ وهل سيصبح في المستقبل معلماً مثل والده؟

ـ لا، سيدرس الهندسة، هو يحب الهندسة كثيراً.

يتوجه المدير بالكلام إلى حامد:

ـ شيء رائع، فكر منذ الآن في هندسة باب الجنين، أنا لما زرت باريس رأيت هناك سوقاً شعبية، ولكن كل شيء مرتب، ساحة واسعة، وعربات فوقها مظلات، بألوان زاهية، والعربات في صفوف متوازية، والنظافة هي كل شيء، لا يمكن أن ترى على الأرض قطعة ورق صغيرة، وهناك خضار مغسولة ومعقمة.

ويلتفت إلى الأب:

ـ إيه، وماذا اشتريت؟

ـ لحمة وبندورة؟

ـ البندورة للعصير؟

ـ لا، هي للطبخ.

ـ إيه بالهناء، أنا في طريقي إلى السويقة سأمر بشريك لي، عندنا هناك محل لبيع الأدوات المنزلية، يوم الخميس كما تعرف هو نهاية الأسبوع، يجب أن أمر به لجمع الغلة، وإجراء بعض الحسابات أنا رأيت زميلك أبو عمر أستاذ الجغرافية قبل قليل وهو يدفع عربة خيار، يمكنك أن تشتري منه، من المؤسف أن تدخل الألفية الثالثة وترى هذه المظاهر بجوار فندق فخم مثل هذا الفندق، البلدية هي المسؤولة، يجب أن تمنع هذه العربات.

يودعه ويمضي، مشدود الظهر، رافع الرأس، واثق الخطو، كأنه في عرض عسكري، والمفاتيح المعلقة في حزامه توسوس، وبقية السيكارة ما تزال في زاوية فمه.

يلتفت حامد إلى والده يسأله:

ـ الأستاذ ماهر أصغر منك، ماذا درس حتى أصبح هو المدير؟

ـ يا ولدي هو تخرج بعدي بعشر سنوات أو أكثر، درس مثلي في كلية الآداب، في قسم اللغة العربية.

ـ ولماذا لم تصبح أنت المدير؟

ـ أنا يا ولدي لا أحب العمل الإداري.

ـ وكيف سافر إلى فرنسة؟

ـ مديرية التربية أرسلت عشرين أستاذاً في بعثة إلى فرنسة للاطلاع لمدة أسبوعين، فتم ترشيحه هو.

ـ ولماذا لم تسافر أنت؟

ـ ما رشحني؟

ـ من ما رشحك؟

ـ هو المدير، رشح نفسه، اتركنا الآن من هذه الأسئلة، وخذ هذه عشر ليرات، هناك بائع كعك اشتر بخمس ليرات كعكة.

يأخذ عشر الليرات، يضعها في جيبه، وهو يقول:

ـ لا أريد شراء شيء من هذا السوق، سأخبئ الليرات العشر، سأودعها في الحصالة.

ـ وكم ادخرت فيها؟

ـ لا أعرف؟!!

ـ ومتى ستفتحها؟

ـ في أول العام الدراسي، لأشتري الكتب الجديدة والثياب الجديدة، مع بدء العام الجديد.

سيارة سوداء فارهة تقف قريباً منهما، سيدة أنيقة تنزل منها، تتجه إلى الفندق، الولد يسأل أباه :

ـ هذه ليست أجنبية، لماذا جاءت إلى الفندق؟

ـ هنا يا ولدي في الطابق الأرضي وراء هذا الزجاج مقهى يمكن أن يرتاده أي مواطن ليشرب فنجان قهوة أو كأس شاي.

ـ من حق الغريب المسافر أن يشرب القهوة في الفندق، ولكن لماذا يشربها أبناء البلد في الفندق؟

ـ للتسلية والمتعة يا ولدي.

ـ الآن عرفت، حدثني أحد أصدقائي أنهم سهروا ليلة رأس السنة في مطعم، ذكر لي اسمه ولكني نسيته، لا ليس مطعم أمير، لماذا لا نأتي نحن إلى هنا؟

يرفع الأب كيس اللحم بيد وكيس البندورة بيد ويقول لولده:

ـ اسمع يا ولدي، ثمن البندورة وثمن اللحم لا يكفي لفنجان قهوة واحد هنا، نحن بثمن فنجان قهوة هنا نتناول في البيت وجبة غداء كاملة.

السيدة الأنيقة تمر بهما، عطرها الفاغم يغمرهما، ومن كتفها تتدلى حقيبة جلدية تؤكد أناقتها، يسير إلى جانبها شاب عريض الكتفين، على عينيه نظارة سوداء، يلتفت يمنة ويسرة وهو يسير إلى جوارها كأنه ظلها، تتجاوزهما بخطوتين أو ثلاث ثم تقف، تلتفت، الشاب إلى يسارها يقف، يحيطها بذراعه، كأنه يبعد عنها الأذى، يأتيه صوتها ناعماً كأنه التغريد:

ـ أحمد

يعرفها، منذ عشرين عاماً لم يلتقها، يتحسس بيده المعروقة ذقنه الخشنة، يتنبه إلى أنه ارتدى قميصاً عتيقاً، وأنه لم يحلق ذقنه هذا الصباح، فهو نازل إلى باب الجنين، للتسوق والشراء، ولكن هل ثيابه أفضل حالاً عندما يذهب إلى المدرسة؟

ـ أهلاً هناء.

ـ هذا ولدك من غير شك، يشبهك، وسيم مثلك.

تمسح بيدها رأس حامد، تفتح حقيبة يدها تناوله قطعة شيكولاته، ثم تقدم إلى حامد ظرفاً، وهي تقول له:

ـ أعرف أنك عملت بعد التخرج في التدريس، عرضت عليك السفر إلى الخارج، وأنت رفضت، أنا تخصصت في الإعلان والدعاية، أمضيت عامين في موسكو، أنا تزوجت، وطلقت، أعمل الآن في المشاريع الحرة، اليوم في التاسعة مساء أفتتح عرضاً للأزياء في الفندق، جئت باكراً لأضع بنفسي اللمسات الأخيرة على الإعدادات.

تناوله الظرف وهي تقول:

ـ هذه بطاقة دعوة لك ولزوجتك، أتمنى حضورك.

تمسح رأس حامد، تقبله، ثم تضيف:

ـ يمكنك أن تحضر هذا العريس معك، هذه بطاقة شرف مفتوحة.

تتركه وتمضي، كالحلم، تغيب في مدخل الفندق، يلتفت إلى ولده، وهو يقول له:

ـ لا تترك قطعة الشيكولاته في يدك، كُلْها قبل ما تذوب.

ـ سأطعم أمي وإخوتي.

ـ كُلْها، لا تتركها للبيت، سوف تذوب.

ـ لن أخبر أمي، سأقول أبي اشتراها.

ـ لن تصدقك، الله يرضى عليك، كُلْها هنا والآن.

الولد ينزع الغلاف الملون عن القطعة، يقضمها، الأب ينظر إليه، يفتح الظرف، يقرأ البطاقة، يثنيها، يهم بوضعها في جيبه، لكنه يثنيها ثانية، ينظر إلى الفندق، كأنه يخشى أن يراه أحد، ثم يمزقها، ويرميها على الأرض، الولد يلتفت إلى أبيه، يسأله:

ـ كانت معك في الجامعة؟

ـ نعم.

ـ وكنت تحبها؟

ـ تقريباً.

ـ ولماذا لم تتزوجها؟

الأب يرفع كيس البندورة إلى أعلى ينظر إليه، ويعلق:

ـ أصبحت البندورة عصيراً، والحافلة تأخرت، أنت عجل بتناول الشيكولاته، قبل وصول الحافلة.

ـ بابا لو تزوجتها أنت، كانت ستصبح هي أمي؟

ـ ليس بالضرورة، ولماذا هذا السؤال؟

ـ أنا ما أحببتها، ولا أحببت مشيتها، أنا أحب أمي أكثر.

ـ وأنا أحبها مثلك أكثر.

ـ من؟ هذه المرأة أم أمي؟

ـ الجواب معروف يا ولدي.

الحافلة تتأخر، الشمس تميل إلى الغروب، وهجها يغدو أكثر اتقاداً، يلتفت إلى ولده يقول له:

ـ أمسك يا حامد هذا الكيس بيد، وهذا بيد، أنا سأشتري من المحل القريب هنا كيلو فليفلة خضراء، معي مئة ليرة يجب أن أصرفها، حتى أشتري تذكرة حافلة بعشر ليرات، ابق هنا في مكانك.

ويترك ابنه إلى جوار الرصيف، في ظل فندق أمير، ويمضي إلى المحلات المجاورة ليشتري كيلو فليفلة.

هي المئة الأخيرة المتبقية من الراتب، لا يمكن أن تكفيه ليوم واحد، كيف سيمضي الأيام الخمسة الباقية حتى أول الشهر؟ الكيلو هنا بعشر ليرات، هناك بسبع ليرات، بائع ثالث عنده ازدحام، وهو وراء العربة، ينادي الكيلو بخمس ليرات، والمشترون ملتفون حول عربته.

يأخذ الكيس، ينتقي، يضع الكيس في الميزان، ثم يناول البائع مئة ليرة، والبائع منهمك في تناول الأكياس الصغيرة، ويصيح أحدهم: "البلدية"، ويدفع البائع عربته، ويجري بها، هرباً من شرطة البلدية التي تمنع مثل أولئك الباعة من التجمع، ويركض وراءه، وهو يحمل كيس الفليفلة، يطلب منه أن يرد إليه بقية المبلغ، يصيح به البائع:

ـ أية مئة؟ تريد أن تنهبني؟ ما كفاني ملاحقة البلدية.

ـ يا أخي، والله أعطيتك مئة ليرة، وما رددت لي البقية، اسأل الناس.

ويصيح به البائع:

ـ أي ناس هؤلاء، هات أعطني خمس ليرات ثمن كيلو الفليفلة، وإلا كسرت رأسك.

ويرفع بيده وزنة ويهم بضربه، ويرد عليه:

ـ يا أخي أنا أستاذ مدرسة، ورجل محترم، وغير معقول

ويرفع البائع صوته:

ـ ابعد عني وإلا جمعت عليك كل أهل باب جنين، إذا كنت حقيقة أستاذ مدرسة خذ الكيس، وابعد عني، اكسب شرفك.

يترك بعض الباعة عرباتهم، يسرعون إلى بائع الفليفلة، يحاصرون أحمد، وهم يصيحون به:

ـ أستاذ وحرامي؟؟

ـ وكذاب؟؟

ـ إذا كنت بحاجة لمئة ليرة أعطيناك ألف ليرة؟؟

ـ امش في طريقك، هذا أفضل لكرامتك

الناس يرمقونه بنظرات، لا يفقه لها معنى، هل يفك حزامه ويهجم على البائع وزبانيته؟ هل يلجأ إلى الشرطة؟ هل يلتقط حجراً من الأرض ويرميهم به؟ وولده هناك على الرصيف ينتظر، يرمي بكيس الفليفلة في العربة، ويرجع إلى ولده، وسباب البائع وشتائمه وألفاظه البذيئة ما تزال تطارده، يسأله ولده:

ـ بابا أين الفيلفلة؟

ـ انس الفليفلة الآن، أنا أعطيتك عشر ليرات؟

ـ نعم!

ـ هاتها، حتى نشتري بها تذكرة ركوب الحافلة.

وينتبه إلى كيس البندورة وإذا هو على الأرض، يصيح بولده غاضباً:

ـ أوصيتك ألا تضع البندورة على الأرض، انظر، صارت مثل العصير، ما عادت تنفع في شيء!!.

ـ بابا والله أنا ما وضعتها على الأرض، ولكن

ـ ماذا حصل؟

ـ صاح أحدهم "بلدية"، وتدافعت العربات، وتراكض الباعة، دفعني أحدهم، ورمى الكيس على الأرض.

يرفع كيس البندورة إلى أعلى، أصبح عصيراً خالصاً، يرفع كيس اللحم، يدنيه من فمه، يشمه، ينظر حوله، يرفع عينيه إلى فندق

أمير، يضع الكيسين إلى جانب الرصيف، ينظر إلى أول الشارع، فيقول لولده:

ـ أخيراً وصلت الحافلة، ولكنها ممتلئة، هيا يا ولدي، لا بد أن نصعد فيها، حاول أن تتعلق بها، حتى ولو أغلق السائق الباب، هيا.

ويدفع بولده في الباب، والحافلة تمشي، ثم يتعلق بها في إثره، تقطع بضعة أمتار، تقف عند إشارة المرور، الناس يعبرون أمام الإشارة مهرولين.

هنا نقطة التقاء القديم بالجديد، هنا تنتهي حلب القديمة لتبدأ حلب الجديدة، كم أنت جميلة يا حلب، وكم أنت قبيحة، كم أحبك وكم أكرهك، رفوف الكتب في دار الكتب الوطنية تؤكد مجدك، وأدبك، وسمو طموحاتك، والعربات المتزاحمة والأسواق المكتظة تكشف عن انحطاط الرغبات والأهواء وسوء الأحوال، لماذا لا يكون سوق اللحم جديداً وواسعاً وعريضاً ونظيفاً؟ لماذا لا تكون عربات الخضار والفاكهة نظيفة مرتبة في صفوف تضمها ساحة واسعة وتغطيها مظلات جميلة، مثل سائر مدن العالم؟ هل من الضروري أن...؟

ينحشران في الأجساد داخل الحافلة، ومن وراء الزجاج، ينظران إلى كيس البندورة، وكيس اللحم، عجوز شائخ يدب على عصا، يقترب من الكيسين، يحملهما، وعلامات السرور على وجهه، حامد يقول لأبيه:

ـ انظر يا أبي، هذا هو المدير يخرج من سوق اللحم،يحمل كيساً مثل الكيس الذي كان معنا.

وتنطلق بهما الحافلة، ليرجعا إلى البيت، يتنبه الأب إلى يد ابنه، يراها مطبقة على قطعة الشيكولاته.

غير معقول، نرجع إلى البيت من غير فليفة ولا لحمة ولا بندورة، نرجع ولا ليرة في جيبي، نرجع ومعنا شيكولاته من الخانم؟؟ يضع يده على كتف ولده، ويهمس:

ـ قلت لك يا أحمد، لا تترك الشيكولاته، هيا كلها كلها، قبل أن نصل إلى البيت.

ـ سأخبئها، لأطعم أمي وإخوتى.

ـ لا يا ولدي، الله يرضى عليك، كلها، لا نريد أن ندخل إلى البيت وهي معنا، لا توجع رأسي.

الشاب ..وبائع العطور

شاب ناحل، لطيف، أشقر الشعر، لم يبلغ السابعة عشرة، بضع شعرات ناعمة بدأت تنبت في ذقنه، مشكّلة لحية رقيقة، كأنها غبار الطلع.

راح في السوق وجاء مرتين أو ثلاث مرات، مثل نحلة تبحث عن زهرة تشرب منها الرحيق، وقف أمام عشرات المحلات لبيع العطور وحاجات الزينة، تأمل الواجهات، تأمل زجاجات العطر المعروضة، تأمل الحاجات المعروضة، تردد كثيراً، لم يجرؤ على الدخول إلى أي محل، أهو الخجل؟ أهو الخوف من الأسعار الغالية؟ أهو الخوف من أن يظهر بمظهر الجاهل أو عديم الخبرة؟

هو لا يبحث عن إبرة في كومة قش، ما يبحث عنه كثير، ومبذول أمامه في كل الواجهات، ولكن لا يعرف ماذا يشتري؟ وكيف يختار؟ بل لا يعرف كيف يبدأ، هي مغامرة التجربة الأولى، ولكن لا بد أخيراً من المغامرة.

واقتحم أحد المحلات، عيناه زائغتان، يكاد لا يبصر شيئاً، دخله وقد أنهكه التجوال، وأرهقه طول التفكير، بل أرهقه الخجل والتردد، يحار المرء إذا أراد شراء شيء، لا يعرف كيف يشتريه.

فاجأه رجل ينهض إليه من وراء منضدة، قصير، مثل قنفذ، أسود الشعر، في رجله عرج، مائل الكتف، أنفه كبير مثل زجاجة عطر مفلطحة، فمه واسع كبرميل، جبينه ضيق، كأنه مجرد شريط، في وجهه آثار جدري، في نحو الخمسين، يرحب به بصوت أجش مبحوح، كأن العطور قد جرحت حنجرته:

ـ أهلاً بك يا ولدي، تفضل، عندي كل ما تريد.

أهذا يبيع العطور وأدوات الزينة؟ وهو أشد الناس دمامة؟ كيف ساقتني قدماي إلى مثل هذا البائع؟ كيف أختار من عشرات المحلات في طول السوق مثل هذا البائع؟ ولكن هل أنا اخترته؟

صمت، لم يجب بشيء، وجد نفسه مسوقاً إليه، وقف ذاهلاً، يتأمله.

سترته نسيج من خطوط كثيرة، صفراء وخضراء وبنفسجية وحمراء، مشكّلة مربعات صغيرة دقيقة ناعمة، كأنها زهرات الربيع، كأنها دندنات في لحن ناعم، قميصه بنفسجي، فيه بضع زهرات، ربطة عنقه صفراء، تنتشر فيها زهور زرقاء وحمراء، كم هو أنيق؟

صوته أجش مبحوح، ولكنه هادئ لطيف، فيه دفء وحنان، بل فيه أنسام عطور، يسأله:

ـ ماذا تريد يا ولدي؟ هل تريد عطراً لخطيبتك؟ عندي عطر ستظل تذكره خطيبتك بعد مرور ألف عام على الزواج، لا يمكنها أن تنساه ولن تستبدل به بعد ذلك سواه؟

صمت، احمرت وجنتاه، احمرت أذناه.

ـ هل تريد عطراً لفتاة تريد غوايتها؟ لا بأس، عندي عطر يجعلها تركع عند قدميك وتمنحك على الفور كل شيء.

شحب لونه، امتقع، هم بالكلام، لكنه صمت.

ـ هل تريد عطراً لأبيك؟ سأعطيك عطراً تعرف من خلاله إن كان يمضي السهرة خارج البيت مع أصدقائه أو مع خليلته.

أحس بالاستياء، فتح فمه، وقال:

ـ أبي لا يغادر البيت إلا إلى المسجد.

هو لا يعرف والده، لو عرفه لاعتذر، أبوه شيخ ذو لحية كثيفة، لعله لم يحلقها منذ أن كان في عمر ولده.

ـ إذا شئت عندي عطر خاص بالشيوخ، يستجاب به الدعاء.

يهم بالكلام، فيسبقه إليه وهو يعرج متقدماً نحوه ليناوله زجاجة صغيرة، وهو يقول:

ـ هذا عطر لك، تفاخر به كل أصدقائك، عندي لك كل العطور.

يتراجع الشاب، يهم بالخروج، يكاد يهمس "لا "، البائع يستوقفه، وبصوته الأجش المبحوح يقول:

ـ لا تخش الأسعار، كل زجاجة عليها سعرها، لو جاءني الأعمى أو البصير فالسعر واحد، ولك حسم خاص، بل خذ هذه الزجاجة، هي هدية لك.

يتكلم الشاب بهدوء:

ـ لا، أشكرك، أنا أريد

يهتف البائع:

ـ تكلم ماذا تريد، أنا مثل والدك، لم هذا الخجل والتردد؟

يتردد الشاب، يحمر وجهه الأبيض الناحل، يحك لحيته، يفرك بإصبعيه شعرات شقراء قصيرة نابتة في أسفل ذقنه، يهمس، وهو يتردد:

ـ أريد فرشاة ومعجون حلاقة وشفرات من نوع ممتاز.

في الطائرة

نشأت في دار عربية مفتوحة، ذات فناء واسع، تتوسطه بركة ماء، في وسطها نافورة، يتقافز منها الماء رذاذاً ناعماً ليرسم دائماً قوس قزح، وتظللها شجرة توت كبيرة، كنت أحاول تطويق جذعها بيدي الاثنتين فلا أستطيع، وطالما تسلقت أغصانها لأضع على أحد الفروع عصفوراً صغيراً، كان يحاول الطيران فسقط، أصحو على أصوات العصافير وهي تزقزق، وكم تعجبني زقزقتها مساء، قبيل الغروب، كأنها تودع النهار، كانت تزقزق جماعات جماعات، وعندما ينضج التوت تؤم الشجرة أنواع من العصافير صغيرة ملونة، لها تغريد جميل، كم كنت أتمنى على أبي لو أمسكت واحداً، فيقول لي: " يا ولدي هذا بلبل حر، هو صغير جداً وناعم، لن تستطيع الإمساك به، يكفي أن تستمتع بتغريده، وتتركه يستمتع هو بحريته، حتى لو أمسكت به ووضعته في قفص فلن يعيش، سيمتنع عن الطعام، وسيضرب القضبان برأسه وجناحيه، حتى يموت". وكانت دارنا تقع قريباً من المطار، والطائرات تمر فوق الدار وهي متجهة إلى المطار لتحط فيه، أراقبها، كلما سمعت صوتها أسرعت إلى فناء الدار، أرفع رأسي إلى السماء أنتظر مرورها فوقي، ظلها يغطيني، أحلم بالسفر فيها، كم حلمت وأنا طفل بعصافير ملونة أمسكها، أداعب ريشها، وما زلت وأنا في الخمسين أرى في أحلامي عصافير ملونة، أحياناً أرى في الحلم أني أحلق، أقفز فوق درج العمارة، لا أهبط عليه درجة أو درجتين، بل أقفز عشر درجات، عشرين درجة، أحلق فوق الدرج، وأنا أحلق أضغط بقدمي، أدفع بهما الهواء، فأقفز، أتابع التحليق، في حالات كثيرة كنت أحس في الحلم أني استيقظت وأن الحلم انتهى وأني الآن أحلّق فوق الدرج حقيقة، وأني أسبح في الهواء، وأن ما أقوم به ليس حلماً، وإنما هو واقع، وأنهض، وإذا هو حلم أيضًا.

هكذا ملأت العصافير حياتي، ولكن من المؤسف أن بعض الأولاد الأشقياء كانوا يقصدون الزقاق حيث تقع دارنا، وكانوا

يوجهون بنادقهم إلى فروع الشجرة المطلة على الزقاق، ليصطادوا، وفي كثير من الحالات تقع العصافير جريحة في فناء الدار، وأسرع إلى مداواتها، في حين تخرج جدتي العجوز لتؤنب الأولاد وتطردهم. ولا أنسى مرة زارني فيها ابن خالتي قاسم، فرآني أداوي جناح عصفور، فخطفه من بين يدي وركض به، وهو يقول: سأشويه وآكله، وأنا أرجوه أن يشفق عليه، وما كان منه إلا أن فصل رأسه عن جسده ببساطة وهو يقهقه، ثم رمى به إلى السطح وهو يقول ضاحكاً: " القطة جائعة، فلتأكله القطة "، وكم كنت أكره القطط، لا لشيء، إلا لأنها تصطاد العصافير. وثمة موقف لا أنساه، وحتى الآن لست على يقين، أهو حلم أم حقيقة، هل رأيته في صورة، أم هل قرأته في كتاب، ولكنه راسخ في وجداني، فقد أيقظتني أمي ذات صباح وهي تقول: "انهض، انظر الثلج، غمر البيوت والأسطحة"، ولا أعرف إن كنت نهضت فوراً أو غطيت رأسي باللحاف، المهم أنني سمعت صوت نقر هادئ على النافذة، فرأيت عصفورة تنقر الزجاج، وأسرعت ففتحت النافذة، ودخلت إلى حيث الأمان والدفء والطعام، ولكن لا أعرف بعد ذلك، هل كان ذلك حلماً أم حقيقة؟ وفي درس الرسم حاولت أن أرسم نافذة وعصفورة تنقر الزجاج، ولكني لم أكن بارعاً في الرسم، فمزقت الصورة، ولكنها ما تزال راسخة في الوجدان.

ثم حرمت من العصافير، فقد كبرت وتزوجت وسكنت في دار في بناء طابقي، هي دار صغيرة مغلقة، لا تطل إلا على بناء آخر يسد عليها الأفق، فلا سماء ولا عصافير، وكان ابني يلح علي يطلب مني أن اشتري له قفصاً فيه عصفور، وكنت أود ذلك ولكن لا أحب حبس العصافير في قفص، كنت أفكر في شراء عصفور وتركه يعيش معنا في الشقة الصغيرة، يحلق في فضائها المغلق، وذات يوم خرجت من البيت متأخراً، وكنت على عجلة من أمري، وأخذت أعدو على الرصيف كي أبلغ الشارع الرئيسي لأستوقف سيارة أجرة تقلني إلى عملي، فقد دعانا المدير إلى اجتماع عام، وإذ بي أرى على الرصيف أمامي عصفوراً مكسور الجناح يحاول الطيران فلا يستطيع، اقتربت

منه فلم يطر، وضعت يدي عليه وأمسكت به، وعدت إلى البيت، طار ولدي كالعصفور من الفرح، وأخذت أداوي جناحه، سقيته الماء بفمي وطلبت من زوجتي أن تعنى به، وانطلقت إلى عملي، عاش العصفور في بيتنا بضعة أيام، امتلأ البيت به حياة وحركة، فرح به ولدي، شفي جناح العصفور، أخذ يحلق في فضاء الغرف، أراد ولدي استبقاءه معنا في الشقة، ولكن رآه يتجه نحو النافذة يحلق نحوها يطير إليها يطلب الفضاء الرحب والحرية ولكنه يصطدم بمنقاره ورأسه بالزجاج فيسقط، يكاد يتحطم، فأشفق عليه ولدي وقال لي: " لا يمكن أن يعيش مثلنا في شقة مغلقة "، وفتحنا النافذة وأطلقناه، اكتأب ولدي قليلاً، وكنت أتمنى فعلاً لو بقي بيننا، أحسست بفقده، وأخذت كلما رأيت عصفوراً في السماء أظنه هو.

ولقد سافرت مرات كثيرة بالطائرة، وكدت أمل من السفر، ولكن لم أمل من ركوب الطائرة، أفكر كثيراً قبل السفر وأقلق، ولكن ما إن أتخذ مقعدي من الطائرة حتى أنسى كل شيء، ومرة كنت راجعاً إلى الوطن من شمال أوربة، فتوقفت بي الطائرة في مطار أثينا، وصعد إلى الطائرة عدد غير قليل من الركاب، وكل منهم يحمل حقائب كثيرة على عادة معظم المسافرين، لكن فوجئت براكب يدخل الطائرة يحمل قفصاً مغطى بقماش أبيض رقيق، ومن حسن حظي كان مقعده قريباً من مقعدي، وقد رأيته يضع القفص على كرسي خاص إلى جوار النافذة، ويقعد هو إلى جواره، وبعد أن أقلعت الطائرة وأخذت مسارها في الفضاء، رفع الغطاء عن القفص، وإذا فيه كناري أصفر جميل، وما هي إلا برهة حتى أخذ في التغريد، والوفرة من الريش في عنقه تقبّ، ثم تهمد، وهو يرسل التغريد صفيراً متصلاً ثم يقطعه تقطيعاً، ثم يرجّع الصوت، ويشدو في هدوء يكاد ينقطع، ثم يعلو كالنشيد، ثم يستقر على شقشقات كنقرات العود، ثم يرسله هادئاً، ثم يستقر على تغريد ، ليصمت من غير أن ينقطع النفس، ودفعني الفضول ونهضت إلى جوار الرجل صاحب البلبل، كان لا يعرف غير اليونانية، لم أتمكن من محاورته، فرجعت إلى مقعدي بعد أن ملأت

عيني من الكناري، وما إن استقر بي المقام في مقعدي، حتى رأيت البلبل يرف بجناحيه في فضاء الطائرة يحلق فوق الرؤوس، يرف، يعلو يدنو، والركاب يتأملونه ذاهلين، وكل منهم يتمنى لو حط البلبل على رأسه أو على كتفه، كان يلف و يدور فرحاً بالحرية، لعله كان يشعر بمتعة التحليق في فضاء طائرة تحلق به في الفضاء، فإذا هو في أجواز السماء على ارتفاع عشرين ألف قدم، وهو ارتفاع ما كان يحلم بمثله، فوجئت به يقترب مني، يدنو، يرف أمام وجهي، ثم يحط على كتفي الأيمن، وألتفت إليه، ويأخذ في التغريد، وأذهل؟ كأنه كان يقول لي شيئاً، لماذا خصني أنا من بين الركاب جميعاً؟ هل هو روح أبي؟ أو جدي؟ المصريون القدامى كانوا يتصورون الروح في هيئة طائر، وأسمع صوت الربان وهو يعلن عبر مكبرات الصوت طالباً من الركاب ربط الأحزمة، وأفتح عيني، ألتفت وإذ لا بلبل على كتفي، و ثمة راكب يبدو أنه يوناني أخذ يغطي قفصاً إلى جواره بقماش أبيض شفاف ليغيب عن أنظاري البلبل الأصفر.

ثم وقع معي حادث في الطائرة لا يمكن أن أنساه، هو بالنسبة إليَّ فجيعة، فقد كنت في إحدى أسفاري إلى أوربة، وكنت من طول الانتظار متعباً جداً وجائعاً، وكنت أنتظر وجبة الطعام بفارغ الصبر، ودخلت المضيفة، تقود أمامها عربة الطعام، وكنت فضولياً مثلي مثل كل الركاب الذين يتلهفون دائماً لمعرفة ما سيقدم لهم، ولما ناولت الطبق إلى الراكب الذي إلى جواري، مددت عيني لأرى ما في طبقه، حتى قبل أن أفتح طبقي، وإذ رأيت فيه أشياء صغيرة قليت على ما يبدو بالزيت، ويتناول الرجل واحدة بالشوكة، وأنا أرقبه ذاهلاً عن طبقي، ويقضم بشراهة، ثم يلتفت إلى صبية إلى جواره، هي على الأغلب زوجته ليقول لها: "رائعة، لذيذة، رائعة جداً "، لا أعرف ما الذي انتابني، كأنني شللت،لم أفتح طبقي، سألته، وأنا أمد عيني إلى طبقه : "ما هذه؟ "ويجيبني وهو يمضغ بشراهة: " لذيذة جداً، شهية ، ألا تحبها، عصافير صغيرة قليت بالزيت".

الحذاء والمعطف

من المبنى المقابل للمصور ديكران، في منتصف شارع إسكندرون، خرج، وهو يتأبط ذراع زوجته، المطر ينهمر رذاذاً ناعماً، لم يغادر المدخل بأكثر من خطوتين، على الفور أشار إلى سيارة أجرة وهو ما يزال على الرصيف، فلم تقف، لم يتنبه إلي الضوء الأحمر فوقها، كانت تحمل راكباً، وقف ينتظر، قالت له زوجته وهي تضغط على يده:

ـ المسرح لا يبعد أكثر من خمس دقائق.

أجابها، وهو ينظر إلى حذائه اللامع:

ـ لا يمكن أن نمشي في هذا الليل وتحت المطر.

ـ ولكن معك مظلة، أحب السير إلى جوارك، وأنت تحمل المظلة.

ـ سيارة الأجرة أسرع وأفضل.

وتتجه بهما السيارة شرقاً إلى مبنى البريد، تقف عند إشارة المرور، ثمة ازدحام شديد، إشارة المرور ثابتة، لا تكاد تتغير، وببطء شديد تمضي بهما السيارة، تنعطف إلى الفندق السياحي، قبل أن تبلغه تقف مرة أخرى عند إشارة المرور، تمر أمام الفندق، الازدحام أشد، ثم تدور حول ساحة سعد الله الجابري، ثم تدخل في اتجاه الجميلية، وأخيراً بعد أكثر من عشرين دقيقة، تبلغ مسرح نقابة الفنانين.

نزل من سيارة الأجرة، ونزلت وراءه.

ـ لو مشينا على امتداد شارع إسكندرون، ومررنا بجامع الصديق، لصرنا أمام المسرح في ثلاث دقائق.

هكذا علقت، فلم يرد، فتح المظلة، وأخذ يلوب بعينيه، ينظر هنا وهناك، لا يعرف أين يذهب.

ـ ماذا حصل؟

ـ انظري.

أشار إلى حذائه اللامع، بقعة طين لوثت حذاءه لدى نزوله من السيارة.

ـ لا بد من البحث عن ماسح أحذية.

ـ لن تجده تحت هذا المطر.

ـ ولا يمكن أن أدخل إلى المسرح بحذاء ملوث.

ناولته منديلاً ورقياً، وأضافت:

ـ يمكن أن تقف هنا على جانب الرصيف لتمسحه.

أجابها ساخراً:

ـ هكذا تحلين الأمور ببساطة.

الجو عاصف، والهواء شديد، والمطر ينهمر غزيراً، والبرد قارس، التفّت بمعطفها، مشت إلى جانبه، والمظلة لا تكاد تحميهما من المطر، الرصيف مزدحم، سار بعيداً عن المسرح، المحلات كلها مغلقة، الساعة التاسعة والربع مساء، ما من ماسح أحذية في هذا الوقت، لا على رصيف ولا في محل، حث خطاه، أسرع.

ـ هناك في نهاية الشارع، أمام محل "سلورة" للحلويات محل خاص لمسح الأحذية.

ـ هل تدخل إلى المحل وتتركني واقفة في الخارج؟!.

ـ ادخلي معي امسحي حذاءك.

ـ ما سبق أن رأيت سيدة في ذلك المحل.

ـ انتظري على الرصيف، أو ادخلي إلى محل "سلورة"، وتناولي صحن حلوى.

ويمران أمام جامع الصديق، يقطعان الشارع، محل ماسح الأحذية مضاء، تسرب السرور إلى نفسه، الآن يمكنه أن يمسح الحذاء، لا يمكن أن يدخل إلى المسرح بحذاء ملوث بالطين، المحل أمامهما، خمسة مقاعد عالية، يحتلها خمسة رجال، أمامهم عمال ينهمكون في مسح الأحذية، وعلى مقاعد مقابلة ثلاثة رجال ينتظرون دورهم.

تشد على يده، تهمس له:

ـ هنا شارع فرعي، يمكن أن ندخل فيه، لتمسح حذاءك.
ـ انظري إلى الطين غطى الحذاء.
ـ لا تبالغ، هي بقعة صغيرة جداً، يمكن مسحها.
ـ أنت لا تقدرين ولا تفهمين، كيف ندخل إلى المسرح بهذا الحذاء، أنا مستعد لرميه وشراء غيره، انظري هناك بائع أحذية.
ـ لنرجع إلى البيت، دعنا من المسرح ومن السهرة.
ـ هل أنت مستاءة؟
ـ لا
ـ أنت لا تقدرين، في مرحلة الخطبة كنت لا أزورك إلا في حذاء جديد، للأسف أنت لم تلاحظي.
ـ والآن تزوجنا وانتهى الأمر.
ـ بل قولي بدأنا، أريد أن تهتمي بحذائك، لا يكفي أن تهتمي بشعرك وتسريحتك، يجب أن تفكري بالحذاء قبل الخروج، ينظر الناس دائماً إلى الحذاء، ويحكمون على الإنسان من حذائه.
ـ والآن ما العمل؟
ـ أنا من زبائن هذا المحل، وأعرف كل الزبائن، لعلي أطلب من أحدهم أن يعطيني دوره.
وتلتفت، تصيح:
ـ انظر، هناك، على الرصيف المقابل، وعند الزاوية، بجوار محل "سلورة" ، ماسح أحذية.
ـ ولكن من غير اللائق أن أقف هنا على الرصيف وأمسح حذائي، والشارع مزدحم بالناس، ومحل ماسح الأحذية هنا أمامي، وأنا من زبائنه، لا شك أن صاحب المحل سيعتب عليَّ غداً.
المطر ينهمر، والساعة تدنو من التاسعة والنصف موعد بدء العرض المسرحي.
رجله على الصندوق، وماسح الأحذية منهمك في مسح الحذاء، والمطر ينهمر غزيراً، وهي إلى جانبه، وهو ممسك بالمظلة، والمظلة لا تكاد تغطيهما.

*

في مرحلة الخطبة قال لها والدها ذات يوم: " خطيبك معقّد، لا شك أنه عانى في طفولته من فقر شديد، لا حظي كيف يقعد أمامنا ويضع رجلاً فوق رجل، ويهز قدمه، كي نرى حذاءه اللامع الجديد، كأن قيمة الإنسان في حذائه"، يومها غاضبت والدها وخاصمته.

*

المطر يزداد غزارة، كتفها الأيمن، والمظلة لا تحميه، أصبح مبللاً، هل تقول له:

ـ لابد أن نرجع إلى البيت، أنا آسفة، لا يمكن أن ندخل إلى المسرح بمعطف مبلل، يقطر ماءً؟!

الكهف

وراء منضدة خشبية ترجع إلى أكثر من نصف قرن كان يقعد، نهض لاستقبالي، جر كرسياً مكسور المسند ودعاني إلى الجلوس بجواره، فوق المنضدة أكداس من الأوراق، من غير ترتيب ولا تصنيف، وبعض الكتب، وبضعة أقلام، وبقع من شاي وقهوة، وفنجان قهوة غمست فيه بقايا ثلاث سكائر، وإلى جواره منفضة فيها بقايا سكائر كثيرة، يبدو أنها لم تغسل منذ أشهر، وإلى جوارها علبة تبغ ليس فيها سوى سيكارتين أو ثلاث.

الغرفة لا تزيد مساحتها عن أربعة أمتار طولاً في ثلاثة عرضاً، ليس فيها سوى نافذة واحدة، جعل صاحبي ظهره لها، ولكنه غطى زجاجها بجرائد قديمة، فلا ترى من خلالها أي شيء، وهي لا تكاد تمنح الغرفة إلا قليلاً من الضوء، فهي على ما يبدو مقابلة لجدار قريب، وفي داخل الغرفة صفت خزائن خشبية على امتداد الجدران، تعود إلى أكثر من قرن، الزجاج في معظم واجهاتها قد تحطم، وُضعت بدلاً منه ألواح خشبية، بعض ما تبقى من زجاج يكشف عن بقايا كتب صف بعضها فوق بعض، ولم يوضع بعضها إلى جوار بعض، إحدى الخزائن قذرة جداً وعليها بقع من شاي وقهوة ودهن، وفي زاوية من الغرفة وراء الباب ستارة من قماش التفت على الزاوية في شكل قوس، الستارة قذرة جداً.

حمل صاحبي فنجان القهوة الذي غمست فيه بقايا ثلاث سكائر، ونهض، وهو يقول:

ـ أعرف قهوتك، أنت تفضلها من غير سكر.

وقبل أن يمضي استل سيكارة وأشعلها، ومضى نحو الزاوية، أزاح الستارة، فكشفت عن حنفية تحتها حوض، وتحت الحوض علبة معدنية صدئة قديمة، فتح الحنفية بهدوء، وعلى الفور بدأت قطرات من الحوض تسقط في العلبة المعدنية، مصدرة صوتاً، وإلى جوارها علبة مماثلة رمى فيها ما في الفنجان من بقايا البن والسكائر، ثم انهمك

في غسل الفنجان من غير صابون، فوق الحنفية ثلاثة رفوف، تحمل علباً كثيرة، ذات حجوم مختلفة، وكلها من حديد صدئ. تقدم نحوي يحمل صينية فيها فنجانين، وضعهما على المنضدة، ورجع إلى الخزانة المخبوءة وراء الستارة، حمل موقد غاز صغيراً، وضعه فوق المنضدة، وأخذ يعدّ القهوة.

ـ هذا هو عالمي، هنا عندي كل شيء، رتبت أموري كما أشاء، هناك في الخزانة المغلقة علبة سمن وعشر بيضات وملح وخبز، إذا شئت أعددت لك فطوراً شهياً، أنا أخرج من البيت باكراً من غير قهوة ولا حلاقة ذقن، هنا أشرب القهوة، وأحلق ذقني، حياتي هنا مستقرة وهادئة، هذه مملكتي، أشعر أني ملك زماني.

وسعل سعالاً حاداً حتى كاد يتقيأ، قلت له وأنا ألقي نظرة على مملكته:

ـ أي مملكة هذه؟

أجاب بحدة، وهو يلتقط أنفاسه:

ـ قد لا تصدق، بعد ألف واسطة ورجاء من هذا وذاك، استطعت الانتقال إلى هنا.

ـ وهذا السعال؟

أجاب وهو يصب القهوة في الفنجان:

ـ هذا تحسس من غبار الطباشير، أيام كنت معلماً.

قدم لي الفنجان، وهو يهمس:

ـ زملائي يحسدونني على العمل هنا أمين مكتبة، هو أفضل من أن تدخل على خمسين طالباً من المشاغبين والمعجزين، لا يرغبون في العلم، ويتحكم فيك المدير، ويأتيك وليّ أمر أحد الطلاب ليقول لك: ولدي أشطر منك، كيف رسبته في صفه؟؟

هممت بالنهوض، سألني:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد رؤية الكتب؟

ـ لا تتعب نفسك، اقعد اشرب قهوتك، كلها مئة كتاب، من كتب الأطفال، لم تتحرك من موضعها منذ عشر ين سنة.

ويفتح الباب ويدخل علينا رجل يتبعه آخر، وسرعان ما يهب صديقي واقفاً كالمذعور، الرجل الأول جهم طويل ممتلئ، في ملامحه قوة وصرامة، أنيق المظهر، مشدود الظهر، رافع الرأس، أخمّن فوراً أنه المدير، يلحق به رجل قصير نسبياً، متهدل الكتفين، بدين، رأسه مدور، أصلع، عيناه مثل عيني ضفدع، لا تستقران على ناحية.

ـ أهلاً سيادة المدير.

هكذا يرحب به صديقي، ويتكلم المدير:

ـ ما كنت أعرف، عندنا مكتبة، ما توقعتها بهذه الصورة، المسؤولية تقع على المديرين قبلي، لا جدوى من إصلاحها، سننقلها وننقلك معها إلى المستودع، في القبو أسفل البناء، وتستلم أمانة المستودع، بالإضافة إلى أمانة المكتبة، أمين المستودع السابق تقاعد، أنا واثق أنك قاعد هنا من غير عمل، غداً ابدأ فوراً بجرد المكتبة، وفي بداية الأسبوع القادم تباشر عملك الجديد، سأحوّل هذه الغرفة إلى قاعة استقبال، كل سنة نعقد اجتماعاً لأولياء الأمور، وليس عندنا قاعة لاستقبالهم، سنشتري أثاثاً جديداً فاخراً يليق بمثل هذا الاجتماع السنوي.

ويلتفت إلى الرجل القصير وراءه، يقول له:

ـ سجل هذا كله في محضر اجتماع المدرسين، وغداً آخذه بنفسي إلى المديرية لأخذ الموافقة فوراً.

ثم يدير ظهره ويخرج.

المأمون 67 المأمون 73

وصلت إلى الثانوية مع بداية الحصة الثانية، الباب الكبير مغلق كالعادة، أراه الآن مثل باب معبد، كنت أراه باب سجن، الباب الصغير يقف وراءه الحارس، قرعت الباب، ففتح كوة صغيرة، أطل بوجهه المدور السمين، وصاح سائلاً بلهجته التي لم تتغير: "نعم ماذا تريد؟"، الشيب في رأسه زاد، أصبح شعره كله أبيض، حدق فيَّ، ثم صاح وهو يضحك: "أمجد، هات سيكارة"، قلت له: "تركت التدخين"، كنت أشتري علبة تبغ خاصة من أجله، أضعها في جيبي، وكلما وصلت إلى الثانوية متأخراً، أعطيته سيكارة، فيفتح لي الباب، أجابني، وهو يفتح الباب: " وأنا تركت التدخين"، عانقني، ضمني إلى صدره بشدة، وهو يقول: " ما شاء الله، خرجت طالباً، وعدت أستاذاً"، وأقول له: " خرجت مع الهزيمة، ورجعت مع النصر"، يرد: " والله ما كانت هزيمة، نحن حاربنا، وضحينا، كانت نكسة، هل تنسى كيف ذهبنا أنا وأنت وأكثر من عشرين طالباً إلى بنك الدم للتبرع؟ وكيف قال لنا الطبيب: الآن لسنا بحاجة، ثم أخذ أرقام هواتفنا، ووعدنا بالاتصال عند الضرورة؟"، صمت برهة، وهو ما يزال يشد على يدي مصافحاً، ثم قال: " هل تقبل دعوتي إلى كأس شاي هنا في غرفتي الصغيرة؟ الشاي جاهز"، وأنظر في الساعة، ثم أقول: "عندي اليوم أربع حصص، سأشرب الشاي عند الانصراف"، يعلق:" أصبحت أستاذاً، ولا تقبل مثل هذه الدعوة"، وأرد: " سوف أقبل دعوتك، ولو تأخرت عن الحصة"، وأدخل غرفته الصغيرة، يسألني، وهو يصب الشاي: " ما أخبار زميلك سمير؟"، أرد: " هو في السنة السادسة في كلية الطب"، ويعلق: " توقعت له هذا، هو أذكى طالب في دورتكم، وما أخبار حميد؟"، أتناول منه كأس الشاي، وأنا أعلق: " تقصد أشقى طالب؟"، ويعلق: "نعم"، وأجيبه: "هل تذكر كيف تبرع في حرب حزيران بطلاء نوافذ الثانوية كلها باللون الأزرق، والده صاحب محل

لبيع الأدوات والمصابيح الكهربائية، توفي والده وهو في السنة الثانية في كلية الحقوق، فترك الجامعة، وأخذ يعمل في محل والده، أصبح الآن أكبر تاجر للمصابيح، عنده معمل صغير لتصنيع مصابيح الشوارع وتجميع الثريات، نصف حلب الآن مضاءة بفضل إبداعه وجهوده". وأمضي إلى قاعة الصف، أشجار السرو في الممر الحجري طالت، وازدهت، لا أقول الماضي يبعث، بل أقول الحاضر يتجدد، أول درس أبدأ به، سوف أتحدث فيه عن حرب تشرين، وبطولات جندنا، وتضحياتهم، ودحرهم أسطورة العدو الذي لا يقهر، سأحدثهم عن صديقي نبيل، فور تخرجه في ثانوية المأمون، تطوع في الجيش، أصبح طياراً، أسقط ست طائرات، ثلاث منها فوق الأراضي السورية، واثنتان فوق جبال لبنان، وواحدة فوق أراضينا المحتلة، وأسقط طائرة سابعة، طائرة فانتوم أصابت طائرته، فلحق بها، وقصفها بصاروخ في جانبها، ثم قفز من طائرته بالمظلة، كل ما يؤلمه أنه لم يستطع في اللحظة الأخيرة أن يسحب الفيلم الذي كان يصور الطائرة، كل طائرة من الطائرات الست التي أسقطها مصورة آلياً على شريط. وفي حرب حزيران قاتلنا ببسالة، ابن عمي عماد كان في الجبهة، أوقف رتل دبابات كانت تتقدم في القطاع الشمالي، دمر ثلاث دبابات، فاشتعلت النار فيها، ولم يستطع طاقمها الخروج منها، وأعطب أربع دبابات، واشتبك مع عناصرها في معركة دامت حوالى الساعة، ثم اضطر للانسحاب بعد تدخل الطيران المعادي، كان مع تسعة جنود فقط، لم يستشهد منهم سوى مجند واحد، وانسحب مع سائر العناصر إلى موقع متأخر بسلام.

غرفة الصف هي نفسها، والنافذة المطلة على الشارع بقضبانها الحديدية هي نفسها، حتى وجوه الطلاب تكاد تكون هي نفسها، كأني أعرفهم من قبل، كأنهم زملائي، يوم كنت طالباً هنا في غرفة الصف هذه، أو كأنهم إخوتهم، المكان لم يتغير، ولكني أحس بكل شيء قد تغير، كأنني أدخل عصراً جديداً، أو مرحلة تاريخية جديدة، إذا كان المؤرخون هم الذين قسموا التاريخ إلى عهود

ومراحل، فإننا نحن الآن أبناء هذا العصر المواكبين للأحداث، نحن الذين نقسم التاريخ فوراً إلى عهود ومراحل، ونسميه، كأننا نقسمه بالسكين. قبل ست سنوات كنت في هذا الصف طالباً، واليوم أدخله مدرساً، ولكن ليس هذا هو وحده التغيير المقصود، قبل ست سنوات تبعثر كل شيء ودمر وتداعى، واليوم كل شيء ينهض ويقف سامقاً، كان ذلك في عام سبعة وستين، في الخامس من حزيران، وكنا نتقدم إلى امتحان الشهادة الثانوية، وإذا الحرب يشنها علينا العدو الصهيوني، ويوقف الامتحان، وينهار كل شيء أو يكاد.

ونسرع إلى مقر الدفاع المدني، أنا وصالح نتدرب على الإطفاء، صديقي حامد يتدرب على الإسعاف، نحسده بعد ذلك، لأنه في فريق الإسعاف تعرف على صبايا كن يتدربن مثله على الإسعاف، ونسهر ليلاً في غرفة المدرسين، نصنع الشاي والقهوة، نصغي إلى المذياع، نتتبع الأخبار، ثم نصعد إلى السطح، البنادق على أكتافنا، نرقب السماء، ونحن مستعدون للتصدي لأي غارة يشنها العدو علينا، أخلينا بعض غرف الصفوف من المقاعد، جهزناها لتكون غرف إسعاف، أو ملاجئ، ساعدنا الحمالين على رفع خزانات للمياه احتياطية إلى السطح.

عند نهاية الحصة يسألني أحد الطلاب: " أستاذ، أنت تحدثت طويلاً عن انتصارنا في حرب تشرين، ولكن لم نستطع تحرير الأرض التي احتلها العدو في عام 67"، ويخيم الصمت، يسود الجو شيء من التشنج، بعض الطلاب يريدون الرد عليه، نظرات بعضهم الآخر توحي بالغضب والنقمة، أرد بهدوء: " لقد حققنا في حرب تشرين التضامن العربي، وحطمنا أسطورة العدو الذي لا يقهر، وكسرنا تفوقه الجوي، واستعدنا العزة والكرامة، وسوف نستعيد الأرض".

نكسة حزيران كانت قاسية حقيقة، صديقي ماهر تطوع في قوات الصاعقة، واستشهد قبل بضعة أشهر من حرب تشرين في عملية داخل الأرض المحتلة، كان من أذكى الطلاب، وكنا نتوقع أن

يحصل على مجموع مرتفع، كنت أتمنى لو عاش ليشهد انتصارنا في تشرين، ولم يكن عدنان أقل منه ذكاء، بل كان أكثر حساسية، بعد انتهاء حرب حزيران بشهر تقدمنا إلى امتحان الشهادة الثانوية، ونجحنا، هو لم يتقدم، انغمس في الخمرة، وأخذ يرتاد الملاهي، يسهر إلى الفجر، ويكثر من الشراب، ما تخلينا عنه، أنا وسمير وعماد وحامد وجورج وحكمت، كنا نلتقيه، وننصح له، ولكن لا جدوى، شعوره بالإحباط دمره، لم يكن ثمة مبرر لضياعه، آخر مرة رأيته فيها كانت في مشفى الكلمة، زرته مع صديقنا حامد، التليف أصاب كبده، بعد شهر فارق الحياة، كان ذلك قبل شهرين فقط، كنت أتمنى لو عاش أيضاً ليرى انتصارنا في تشرين.

قبل دخولي إلى مبنى الثانوية مررت ببائع الكاتو، قطع الكاتو في محله كأنها زهور الربيع، طالما دخلت إليه مع زملائي يوم كنا طلاباً، لم تكن الغاية تناول الكاتو، بل كانت الأنس بالصبايا ومزاحمتهن في المحل، والاستمتاع بالكاتو في حضورهن، واليوم أدخل المحل، بعد ست سنوات، وأنا أستاذ، آخذ قطعة كاتو، في المحل بائع شاب، قوي البنية، مورد الخدين، حليق الرأس، وفي عمق المحل شيخ عجوز، ذو لحية بيضاء، أسأل الشاب: " أنت عسكري؟"، ويرد :" نعم، مجند متطوع، أنا من الفرقة التي حررت مرصد جبل الشيخ، رفعنا عليه العلم السوري، اليوم بعد مضي شهر على توقف الحرب، أنا في إجازة لأسبوع"، ويحدثني عن تحرير المرصد، وفرار جند العدو، والده في عمق المحل يصغي، والدموع تنهمر من عينيه، يشير الشاب إلى والده، ويقول: " هو الذي شجعني على التطوع في الجيش".

وأخرج من غرفة الصف، وفي الممر المزدحم بالطلاب، أرى أستاذي هشام، أستاذ اللغة العربية، قامة مديدة، ونظارة طبية، وشعر أبيض، وانحناء بسيط في الظهر، رأسه مطرق في الأرض يفكر، يصغي، وطالبان أو ثلاثة من حوله، يحدثهم ويستمع إليهم، وهو غير منتبه إليّ، أقف قبالته، أسد عليه طريقه، يرفع رأسه، يراني، يصيح

ممازحاً:" هذا أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ هل جئت لتنافسني؟"، ويضمني إلى صدره، يعانقني، كنت أحبَّ الطلاب إلى قلبه، يتأبط ذراعي ويمضي بي في الممر، وهو يتكلم: " هزمتني، يا أمجد"، أدهش، ألتفت إليه، أقول: "معاذ الله، أنت أستاذي"، يرد: " هزمني تفاؤلك، ترى أنت الآن انتصارنا في تشرين"، أيام كنا طلاباً كان هو من أكثر الأساتذة تشاؤماً ويأساً، كان لا يردد سوى "هزمنا، ضاع كل شيء، لن ننهض بعد اليوم"، كنا نعقد لقاءات أسبوعية، في صيف النكسة، ونحن نستعد للاحتمالات كلها، وكان هو أكثر الأساتذة يأساً، لغته شعرية، تعبيراته انفعالية، ملامح وجهه تؤكد أنه لا أمل ولا جدوى، ولا يتفوق عليه في التشاؤم واليأس وحدة الانتقاد إلا الأستاذ همام، أستاذ الرياضيات، لغته هي الأرقام، في كل اجتماع أو لقاء يكرر الأرقام التي حفظها، عدد الطائرات التي سقطت وعدد الدبابات التي دمرت وعدد القتلى والأسرى والجرحى ومساحة الأرض التي احتلت، هو والأستاذ هشام، أستاذ اللغة العربية، كانا يعزفان إيقاع اليأس والتشاؤم، بالأرقام تارة وبالنواح أخرى، وكان علينا نحن أن نذرف الدموع، ولكن لم نذرفها، كنا نسمع ونحاور ونناقش، كنا نرفض، ولا أنسى أستاذ التاريخ، الأستاذ عماد، وحده كان يقف إلى جوارنا مؤيداً، يؤكد حتمية النصر، يعطينا دروساً من التاريخ، وينفث فينا روح الثقة والعزيمة، هو الآخر توفي قبل أن يشهد النصر، توفي العام الماضي، قرأت نعيه وأنا أمر أمام ثانوية المأمون، ولم يكن في الحقيقة وحده المتفائل، ربما كان الأكثر ثقة وتفاؤلاً، ولكن لم يكن وحده، أستاذ الفلسفة، الأستاذ رياض، كان متفائلاً أيضاً، وهاهو الآن الأستاذ هشام يتأبط ذراعي ويمضي بي، ليشهد بأننا انتصرنا.

ويسألني هامساً، ونحن ما نزال في الممر المزدحم بالطلاب: " كيف أنت وليلى والشعر؟"، كنت الأحب إلى قلبه من بين الطلاب كلهم، كنت أزوره في بيته، كنت أعطيه قصائد شعرية حالمة ليراجعها لي، وكان يسخر منها ومن مشاعري، ويقول: " كفاك ادّعاء"، ومرة التقيته في الشارع مصادفة، وحين أخبرته بانتسابي إلى قسم اللغة

العربية سخر مني، ثم قال: " لن تصبح شاعراً"، واليوم يسألني عن ليلى، ما كان يصدق، الشعر عنده مديح أو هجاء، وما سواه ادّعاء، قلت له صدّقني:" كانت تحبني"، يضحك، ويعلق، "كانت، نعم كانت"، ويصمت، ثم يسأل: "وكيف عرفت؟ هل كتبت لك قصيدة؟ هل منحتك قبلة؟ هل خلوت بها؟".

قبل شهر فقط تأكد لي حبها، بعد ست سنوات يتأكد لي حبها، أتوجه إلى المصرف التجاري، لأصرف شيكاً بالدولار وصلني من عمي المقيم في الكويت، أرسله لأتبرع بقيمته للمجهود الحربي، أدخل غرفة مدير البنك، وإذا وراء المكتب سيدة، سمراء، مدورة الوجه، ذات عينين سوداوين، توقّع على أوراق أمامها، وإلى جوارها تقف شابة، تناولها الأوراق، واحدة واحدة، وهي توقع عليها، الشابة ممشوقة القوام، مرسلة الشعر على الكتفين، أناول الشيك إلى السيدة القابعة وراء المكتب، تنظر فيه، ترفع رأسها إليّ، نظرتها ثابتة، وجهها هادئ، تطلب بطاقة الهوية الشخصية، أناولها إياها، ترفع رأسها ثانية، تتفرس في وجهي، هل الشيك مزيف؟ هل التوقيع غير صحيح؟ نظرتها المتفحصة تستفزني، هل من مشكلة، نعم أنا صاحب العلاقة، تهمس بصوت ناعم: " تفضّل "، وهي تشير إلى مقعد جلدي مقابل لمكتبها، ماذا؟ هل سوف تستدعي الشرطة للقبض علي؟ وتضغط على جرس على مكتبها، فيدخل الآذن، تناوله الشيك والبطاقة، وهي تقول: "اصرف الشيك للأستاذ، وأحضر المبلغ إلى هنا"، أدهش لهذه المعاملة التي ما تلقيت مثلها من قبل في أي مكتب، لا في المصرف نفسه ولا في غيره، وقبل أن يغادر الآذن، تسألني : "كيف هي قهوتك؟"، وبعفوية وعلى الفور أجيبها وأنا ما أزال مدهوشاً: "من غير سكر"، وتطلب فنجانين، أدقق النظر في وجهها المدور الجميل، في عينيها السوداوين المتألقتين، أقرأ الاسم المكتوب على لوحة مثبتة في مقدمة المكتب:" لبنى الأحمد"، إذن هي نفسها.

كل يوم صباحاً لابد لي من انتظارها، لا أدخل إلى الثانوية إلا بعد أن تمر على الرصيف الغربي من الثانوية متجهة إلى ثانوية

معاوية، "صباح الخير يا قمر"، " يا أجمل ليلى"، "دائماً أنا في انتظارك"، "أنت سبب نجاحي أو رسوبي"، " يا أجمل قرنفلة"، إذا تأخرت هي تأخرت أنا عن الثانوية، ولا بد من سيكارتين للحارس بدلاً من سيكارة لكي يفتح لي الباب، ذات صباح كان الثلج بعلو نصف المتر، أكثر الطلبة لم يحضروا، ووقفت أنتظر، تأخرت، أراها من بعيد قادمة، أحد الشبان يهم برميها بكرة ثلج، وأركض نحوه، وندخل معاً في عراك، ينضم إليَّ صديقي خالد، وننهال عليه ضرباً، ويسرع إلينا اثنان من صحبه، ونتبادل اللكمات، ثم ينفض النزاع، وكانت هي قد مرت بسلام.

وتتكلم: "هل تذكر هديتك لي في رأس السنة؟ يؤسفني أني لم أقبلها"، أسألها: "وهل تقبلينها اليوم"، تبتسم، تعلق:" أقبل منك كل شيء"، في رأس السنة أجري وراءها، وأنا أصيح:" يا آنسة، سقط منك هذا الدفتر"، وأقدم لها مفكرة العام الجديد، تنظر إليها بعينيها الساحرتين، تدهش، ثم تقول: " لا، ليست لي"، ويتجرأ صديقي خالد فيقول لها:" اقبليها، ليحلو العام كله"، صديقي خالد كان يشجعني، كان هو يتغزل بصديقة لها تمشي معها. أسألها: "كيف صديقتك رجاء؟"، تضحك، تجيب: " بخير، هي الآن مدرسة في ثانوية معاوية، ليست رجاء، اسمها منى"، كنا نطلق عليهن الأسماء التي نريد، وتهمس، " وأنا لست ليلى كما كنت تناديني، أنا لبنى"، وأقول لها: "وأنا لست عماد، كما سمعتك تمهسين مرة لرجاء، أو منى، أنا أمجد"، تعلق: "كنا مثلكم، نطلق عليكم الأسماء التي نتخيلها"، وأنهض، أمد إليها يدي، وتلتقي اليدان أول مرة في مصافحة هادئة، وأعود إلى مقعدي. "وصديقك، طاهر، أين هو الآن؟"، هكذا تسألني، وأرد: "تقصدين خالد، اسمه خالد، في السنة الخامسة من كلية الصيدلة، هل رأيت؟ لقاؤنا الصباحي الجميل كان حافزاً لنا للجد والعمل، الأساتذة كانوا يوجهون لنا النقد اللاذع، لولا تلك الصباحات الجميلة لما كنا من الناجحين".

ونبلغ غرفة المدرسين، والأستاذ هشام ما يزال يتأبط ذراعي، أمام باب الغرفة أقف، أعتذر عن الدخول، أقول له: " هنا أساتذة أجلاء، هم أساتذتي، وأنا أخجل من الدخول، ما أزال تلميذاً "، يدفعني في كتفي، وهو يقول بحزم: " هيا، أنت الآن أستاذ، ادخل معي"، أحاول ألا أتزحزح من مكاني، ويقرع الجرس، فيقول لي: " يا شقي حرمتني من فنجان قهوة في الاستراحة، من أجل قصة حبك الفاشل، هيا، لنعود إلى الصف"، ونرجع القهقرى.

نخرج من المبنى الرئيسي للثانوية، متجهين نحو المبنى الملحق، نعود إلى الدخول في الممر العريض بين أشجار السرو، والأستاذ هشام ما يزال يتأبط ذراعي، كأنه يتوكأ عليَّ، يهمس لي: " انظر، كل شيء غير صحيح، هذه الأشجار شاخت، تجاوز عمرها الخمسين، يجب قلعها، وغرس أشجار غيرها، وهذه الساحة ما تزال ترابية، يجب فرشها ببلاط، والسور الخارجي يجب تجديده، ولابد من تغيير خشب النوافذ والأبواب، لا بد من طلاء الجدران، بناء المدرسة كله بحاجة إلى تجديد"، أقول له: " نحن الآن في حالة حرب، وكل شيء يجب أن يوجه للمعركة"، يعلق: " أنا لا أحب الرياء، أنا أبحث دائماً عن الأفضل والأجمل، لا أسكت عن القبيح أو الغلط". ونصل إلى المبنى الملحق، والأستاذ هشام ما يزال يتأبط ذراعي، وهو يمشي الهوينى، وأنا أتابع رواية حكايتي مع لبنى، يعلق مؤكداً: "حب فاشل"، وأردّ: " بل حب ناجح، هي أصبحت مديرة بنك، وأنا أستاذ في ثانوية المأمون، وشاعر"، يقول مؤكداً: "إذا لم تتزوجها فهو حب فاشل"، أرد عليه:" سبقتني إلى الزواج، أنجبت ولدين"، يعلق للمرة الثالثة مؤكداً ببرود: "حب فاشل"، أعلق:" هو ابن مرحلته، هو خير من لا شيء" .

يلتقينا أستاذ الفلسفة، الأستاذ رياض، يقف يحدق بي، يقول:"عرفتك، أنت واحد من طلابي قبل خمس سنين"، ويتكلم الأستاذ هشام: " بل قبل ست سنوات، هو الآن أستاذ هنا في الثانوية"، يمد أستاذ الفلسفة يده إلي مصافحاً، وهو يقول: "أهلاً بك، هل تذكر عبد

الرحمن؟"، وأرد: "لا"، ويسأل: "وهل تذكر: ميشيل؟"، وأرد: " نعم، هو من دورتي"، ويتكلم أستاذ الفلسفة مبتهجاً: " الأول الآن مدير التموين، والثاني رئيس البلدية، وهل تتذكر عاصم، أظنه تخرج في المأمون قبلك بدورتين، هو الآن رئيس الخبراء في حقول النفط"، ويصمت قليلاً ثم يضيف: " أنت الآن أستاذ، وهذه الثانوية هي ثانويتك، من طلابك من سيصبح مدرساً ومهندساً وطبيباً ووزيراً، احرص على رجال الغد".

أودع الأستاذين، وأدخل إلى غرفة الصف، غرفة الصف هي نفسها، الجدران زال عنها الطلاء، وتقشرت، وفي مواضع كثيرة تظهر الرطوبة واضحة، القضبان الحديدية في النوافذ صدئة، وشكلها غير جميل، كأنها قضبان في نوافذ سجن، لماذا لا تكون مصنعة على شكل زهور، بعض الزجاج في النوافذ محطم، وبعضه الآخر ما يزال يحمل بقايا من طلاء أزرق، نحن الآن في تشرين عام 73، ولسنا في حزيران عام 67، تغير الزمان، ويجب أن يتغير المكان، كل شيء حقيقة بحاجة إلى تغيير، مهما كلف الثمن، ولا يمكن التأجيل أو الانتظار.

أحدث طلابي عن هذا كله، فينبري أحدهم قائلاً:" لا يكفي تحديث الأبواب والنوافذ والجدران، الثانوية بحاجة إلى قاعة مطالعة"، ويتكلم آخر: "نحن بحاجة إلى مسرح"، ويتكلم ثالث:"نريد فتح فرع داخل الثانوية للتصوير الفوتوكبي"، ويتكلم آخرون: "نريد تزويد المكتبة بكتب جديدة، وتعيين أكثر من موظف فيها، وفتح أبوابها للإعارة طوال النهار"، "وما المانع في تخصيص حافلات صغيرة لنقل الطلاب، ولا سيما القادمين من الريف، ليصلوا إلى الثانوية في الوقت المناسب"، "المخبر بحاجة إلى توسيع، ولا بد من تزويده بمعدات ومواد وأجهزة ووسائل إيضاح جديدة وحديثة"، " لماذا لا تقام في الثانوية دورات تقوية في اللغات الأجنبية"،"سمعنا عما يسمى كومبيوتر، لماذا لا تزود الثانوية بأجهزة كومبيوتر؟"، "نتمنى أن تنظم الثانوية زيارات إلى الجبهة لنرى المواقع التي قاتل فيها أبطالنا؟" "

ولماذا لا تنظم الثانوية رحلات إلى الوطن العربي، ليتعرف الأشقاء العرب بعضهم على بعضهم الآخر؟".

أقول لهم:"أحلامكم جميلة، ولكنها تكلف الكثير"، يعلو صخبهم معلقين:" أنت ما دخلت غرفة المدير"، " غير فيها كل شيء"، " كل شيء فيها جديد"، "كأنها غرفة وزير"، "كلفت ثلاثين ألف ليرة".

ويقرع باب الصف، ويدخل الموجّه، يستأذنني، ثم يتوجه إلى الطلاب ليقول لهم:

ـ هذه هي الحصة الأخيرة، مع نهاية الدوام، طلاب الثانوية مدعوون كلهم مع الأساتذة إلى اجتماع توجيهي عام، سيتحدث فيه السيد المدير عن حرب تشرين التحريرية.

ويخرج الموجه، فأقول للطلبة:

ـ حاولوا عرض مقترحاتكم في الاجتماع على المدير.

ويعلو لغطهم معلقين: "لا يسمح لنا" "لا سؤال ولا جواب ولا تعليق ولا نقاش" "كل يومين يدعونا إلى مثل هذا الاجتماع" "أكثر من ساعتين يظل يتكلم" "لا يعرف أي شيء عن حرب تشرين" " لا يسمح حتى للأساتذة" " أنت أستاذ جديد" " أنت لا تعرفه" "وحده من يتكلم" "دائماً وحده من يتكلم".

المدير ... أخي

أنهض على رنين الهاتف، كأن أفعى لدغتني، زوجتي ترفع السماعة، تقول لي:

ـ أخوك على الخط.

أنظر إليها مدهوشاً، أقول لها هامساً:

ـ قولي له : نائم.

زوجتي تنظر إليّ، ترفع حاجبيها متسائلة، أصيح:

ـ نائم، نائم.

أنظر إلى ساعة يدي، هي السادسة، نمت حوالى الساعتين، ليتني لم أنم بعد الغداء، كلما نمت بعد الغداء استيقظت مستاء، لا بد من الإزعاج من الداخل أو الخارج.

تمدّ يديها إليَّ من النافذة، تصلني عبر الشارع، تحمل إليَّ سلة من تين، صدرها شبه عار، لم أتبيّنْها، لم أعرف من تكون؟ شعرها أصفر، السلة مغطاة بورق التين، ورق كثير، لا أعرف لماذا؟ كأني قلت لها اتصلي بالهاتف أولاً، أجابتني اتصلت كثيراً، خطك مشغول، ترفع ورق التين عن السلة، فإذا فيها هاتف يرن، سماعته تتحرك كما في الأفلام.

هو حلم إذن، ورنين الهاتف في السلة هو هاتفي يرن، وأخي يتصل، أحس بالذعر على الرغم من إدراكي أنه حلم ولا سلة ولا تين ولا امرأة، في الحلم أيقنت أن في السلة ثعبان النيل، ولكن ها قد صحوت وهو حلم، ولا تين ولا ثعبان، ولكن لست أدري لمَ أنا منزعج؟ ما نكرهه هو الذي دائماً يتحقق، وما نحبه لا يتحقق.

ـ أخوك يطلب مني أن أوقظك، هو مصرّ على الكلام معك.

أهبط من السرير، لا شك أن أخي نادم، سيعتذر مني، سوف يرد لي مئة وخمساً وثمانين ليرة، أو مئتي ليرة، ولكن لعله لا يعلم بالأمر كله، لكن هل يعقل أن...؟

أرد على أخي بجفاء:

ـ أهلاً.

ـ اليوم أنت مدعو مع زوجتك وابنك هاني لنتناول معاً طعام العشاء.

أسأله بجد:

ـ وصديقي؟ هل هو مدعو؟

ـ أي صديق؟

ـ الصديق الذي زارك بصحبتي.

ـ ما عرفته؟!

ـ هل نسيت بهذه السرعة؟ المواطن الذي طلب صورة عن سجله.

ـ آه، تذكرت، هل سافر؟

ـ لا، اليوم مساء سفره.

ـ إيه، هل من مشكلة؟ الموظف أنجز الصورة عن سجله، وأنا وقعت عليها بنفسي.

ـ هل الدعوة بمناسبة إنجاز المعاملة؟

ـ لا علاقة لها، أنت أخي، واليوم أنا أدعوك.

ـ أظن أن الدعوة اليوم للصلح أو الاعتذار.

ـ غريب أمرك اليوم، هل هناك خطأ ما؟

ـ نعم، هناك خطأ، بل جريمة.

ـ ومن ارتكبها؟

ـ أنت تعرف.

ـ لم أفهم، وضّح قصدك؟

زوجتي تهمس لي:

ـ لماذا لا تلبي دعوة أخيك، لماذا تكلمه بهذه اللهجة؟ أعرفك تحبه، وأنا أحب زوجته؟ بيني وبين زوجته تفاهم ومودة.

أي تفاهم هذا؟ ليت مثله بيني وبين أخي، هو أخي، وليس بيني وبينه مثل هذا التفاهم.

*

أقول بثقة واعتزاز لمدير المكتب:

ـ قل له: أخوك في الباب.

ينظر إلي بعينين ثاقبتين، يتأملني غير مصدق، يضع يديه على المكتب، ثم ينهض كأنه يقتلع نفسه من الكرسي، ينهض بطوله السامق، وكتفيه العريضتين، ورأسه الكبير، يدخل إلى مكتب أخي المدير، أنظر في ساعة يدي، أنظر إلى صديقي، يقول لي:

ـ لا تحرجه، ربما كان عنده اجتماع، أنا سأراجع الموظف بنفسي.

ـ لن يستجيب لك الموظف، سيقول لك: قدّم الطلب، ثم راجعني بعد أسبوع، ولكن بمساعدة أخي سيقضي أمرك ونحن نشرب القهوة في مكتبه، لا تنس، أخي هو المدير، سيأتي إلينا الموظف بنفسه، لن أتركك تقف في الزحام تنتظر ساعة، وأنت غداً على سفر.

ـ سفري بعد غد.

ـ وقت المسافر ضيق، أمامك ألف مشكلة يجب حلها قبل السفر.

أحاول إشغال نفسي بالحديث مع صديقي، الوقت يمر، أحس أن ساعة مرت. يخرج مدير المكتب بقامته السامقة من غرفة أخي المدير، وهو يداعب ربطة عنقه الطويلة المدلاة على صدره، أنهض، أهم بالدخول، يقول مدير المكتب، وهو يشير إلى المقعد أمامه:

ـ تفضل، سأطلب لكم القهوة، المدير يرد على هاتف من العاصمة، السيد الوزير على الخط.

أقعد وأنا أرخي ربطة عنقي، أعرف أن كلامه غير صحيح، ما من مدير إلا وهو في اجتماع دائماً، أو يتكلم مع السيد الوزير، هذه هي الحجة المصطنعة والمعروفة.

ـ شكراً، لا تطلب القهوة، سأنتظر، أخي سيقدم لنا القهوة في مكتبه.

ألتفت إلى صديقي، أقول له:

ـ انتظارنا هنا أفضل من وقوفنا في البهو وسط الزحام، والموظف لا يرد علينا.

إلى جوار مدير المكتب، على يمينه، حاسوب بشاشة كبيرة، من نوع كومباكت أمريكي متطور جداً، في شاشته تظهر أوراق الشدة، كان قبل دخولنا يلعب في أوراق الشدة، ولدى دخولنا تركه، وأبقى الأوراق ظاهرة تتألق في الشاشة.

أنظر في الساعة المعلقة على الجدار، مدير مكتب أخي يتصفح جريدة، أعرف أنه لا يقرؤها، ولا يشتريها، إنما تأتيه كل صباح، فيتصفحها، يقرأ العناوين العريضة، فيظن أنه عرف كل شيء، ثم يسلّي نفسه بحل الكلمات المتقاطعة، ينظر إلينا من وراء صفحاتها، كأنه نمر يهم بالانقضاض علينا، يسألني بصوته الأجش العريض:

ـ هذه أول مرة تزور فيها السيد المدير؟.

أتردد قليلاً، أود ألا أجيبه، ولكن أتكلم فأقول:

ـ نعم، أنا لا أحب أن أزور أخي في مكتبه.

يصمت يخفي وجهه الضخم وراء الجريدة، أنهض، أنظر من النافذة، أرى مدينتي، ما أجملها، وما أقبحها، كم أحبها وكم أكرهها، الأسطح مغطاة بأطباق فضائية صدئة كالغربان، عمارات تسد الأفق، البيوت والأحياء القديمة ما عادت تظهر، مثل جدتي العجوز، وارياناها الثرى منذ أعوام، ما عدت أسمع حكاياتها.

جرس يرن، ينهض مدير المكتب، يدعونا إلى الدخول، ينظر إلى ساعة يده، يقول كأنه يرسم بالأحمر خطاً لا يجوز تجاوزه:

ـ بعد عشر دقائق عنده اجتماع خاص، من الضروري انتهاء الزيارة بعد أقل من عشر دقائق.

لماذا لم يطلب أخي تعيين مدير مكتب غير هذا؟ ولكن أظن أن هذه هي المواصفات المطلوبة، لا بد أن يكون مدير المكتب كذلك، ماذا أقول؟.

أدعو صديقي إلى الدخول قبلي، أقدمه إلى أخي وهو يصافحه، نقعد متجاورين، أنا وصديقي، أقول لأخي وهو قاعد وراء مكتبه الفخم:

ـ صديقي يريد صورة عن سجله.

يرد أخي وهو يسألني:

ـ هل قدم الطلب إلى الموظف؟.

ـ لو قدمنا الطلب ما كنا دخلنا عليك.

ـ ولكن لا بد من الطلب.

صديقي يخرج من محفظة يده الجلدية الصغيرة ورقة مطوية، يفتحها، ينهض، يقدمها إلى أخي، وهو يقول:

ـ هذا هو الطلب.

يتكلم أخي:

ـ الطلب تقدمه للموظف، وليس لي.

لهجة أخي جافة، أحس بشيء من الخيبة، أقول لأخي المدير بعفوية وكأني في بيته أشرب القهوة:

ـ نريد حاشية منك ليسرع الموظف في تقديم الصورة عن سجله، ولعلك تتصل بالموظف بالهاتف، لأن صديقي مسافر غداً.

أخي يرفع الهاتف، يكلم الموظف.

أخي يرتدي قميصاً بنصف كم، ربطة عنقه جديدة، مشدودة بأناقة، إلى جانبه هواتف ثلاثة، وحاسوب بشاشة رقيقة، عليها صورة جسر البوابة الذهبية في أمريكا، وراءه نافذة واسعة بحجم الجدار، تطل على المدينة كلها، ولكن، ياه، ليس هناك أي شيء، ليس ثمة أي بيت، أين غابت المدينة؟ أفتقدها، مع يقيني بأن هذه الجهة تطل عليها، ولكن لا أعرف كيف اختفت، والزجاج نظيف لامع متألق، كأن لا زجاج.

الموظف يدخل، يقف أمام أخي، لا يبالي بوجودنا، يقول له أخي، وهو يشير إلى صديقي:

ـ خذ الطلب من هذا المواطن، وجهز لـه فوراً صورة عن سجله.

الموظف متوسط الطول، ولكنه بدين، ممتلئ، كأنه ملاكم أو مصارع، رأسه كبير مثل كرة السلة، صلعته كبيرة، له لحية كثة سوداء، لست أدري أهي لحية فن أم لحية دين؟ ملامح وجهه جامدة، لا توحي بشيء، ينظر إليّ بعينين محملقتين، هل لفت نظره الشبه بيني وبين أخي؟ في الواقع نقاط الاختلاف بيني وبين أخي أكثر، هو أسمر وأنا أشقر، هو بدين وأنا ناحل، هو أكبر مني في العمر وفي الجسم.

الموظف يتناول الطلب من صديقي، أشعر بالسرور، يداخلني الفخر، أخي المدير يأمر الموظف الذي يعمل عنده أن يعد الصورة عن السجل فوراً، هذا هو شعوري، هو يعمل عنده، هكذا أشعرتني لهجة أخي وهو يأمر الموظف، كلمة فوراً تسرني كثيراً، ولكن لماذا قال: هذا المواطن؟ لماذا لم يقدمني إلى الموظف؟ لماذا لم يعرّف بي؟ وأنا أخوه، المهم أن نحصل على الصورة عن السجل فوراً.

الموظف ما يزال يقرأ في الطلب، وهو يشد ظهره، رافع الرأس، كأنه يضع في عنقه طوقاً من حديد، أو كأن سيخاً من حديد قد أدخل في عموده الفقري، يتكلم بحدة:

ـ لماذا لصقت عليه الطابع؟ يجب ألا تلصقه إلا بعد قراءتي أنا له.

صديقي يتكلم بتهذيب شديد كأنه تلميذ صغير:

ـ هل من خطأ؟

الموظف يرسل زفرة طويلة، كأنه تنين صيني، ثم يتكلم بحدة:

ـ نعم، للطلب أصوله، من صاغه لك؟

أتدخل أنا فأقول:

ـ هو صاغه بنفسه، صديقي حاصل على الماجستير في فن الإدارة من مانشستر، رجع من إنكلترة قبل سنتين، عمل أقل من سنة في شركة خاصة، وهو مسافر غداً إلى الخليج.

الموظف يحملق بي، وبصديقي، كأنه يراني بعين، وبالعين الأخرى يرى صديقي، يسألني مستغرباً:

ـ هو صديقك؟

ـ نعم

ـ ولكن كأنه أخوك، يشبهك، كل الشبه، لا أصدق، انظر إليه، كأنك تنظر في مرآة.

أقول في نفسي: هذا أخي، وهذا صديقي، ولكن ما عدت أعرف الآن، من هو الأخ ومن هو الصديق؟

ـ أخ أو صديق، المهم أن تنظر أنت في الطلب.

يتكلم الموظف وهو يضغط على الحروف كأنه يذيع نشرة أخبار الحرب العالمية العاشرة، قائلاً:

ـ للطلب لغته الخاصة، يجب أن يفتتحه بعبارة: من مقدمه فلان.

يتدخل أخي المدير فيكلم الموظف قائلاً:

ـ له عذره، هو غائب عن الوطن ولا يعرف أصول تقديم الطلبات، تسامح معه.

أشعر بالغبطة، أخي يتدخل، أبتسم، ولكن مرة أخرى أشعر أن كلمة تسامح معه غير مناسبة، كأنه مجرم أو متهم، أو كأنه إنسان غبي جاهل لا يعرف شيئاً، ما ذا أفعل؟ هل أرد على أخي؟ على كل حال، المهم أن نحصل على الصورة عن السجل فوراً.

الموظف يتكلم وكأنه يقرر حقائق كونية مطلقة:

ـ السجلات في غرفة زميلتي ليندا، وهي خرجت منذ عشر دقائق، أخذت هي إذناً منك بالانصراف قبل ساعتين من نهاية الدوام.

أتدخل أنا:

ـ ولكن سحب الصورة سيكون من الحاسوب، وبالمناسبة سجل صديقي أبيض، هو لم يعمل في أي مؤسسة رسمية، كما ذكرت لك.

يعلق الموظف وهو يقرر حقائق أخرى عن دورة الأفلاك:

ـ بعد سحب الصورة من الحاسوب لا بد من تدقيقها على السجلات.

أخي المدير يتكلم:

ـ اطلب من المستخدم أن يفتح لك باب غرفة ليندا، وابحث بين السجلات عن سجله.

مرة أخرى أشعر بالرضا، أخي يأمره أن يبحث، وهو يشير بيده، ولكن لماذا قال: بين السجلات؟ كأنه ضابط كبير يأمر مجنداً صغيراً بالبحث عن لغم فردي في أرض حدودية، فقط أتمنى لو يأمره أخي بحلق لحيته السوداء الكثة، لا أعرف لماذا تستفزني؟ بل تخيفني.

الموظف ينظر في ساعة يده، ساعة يده كبيرة نسبياً، ذات سوار ذهبي، يزفر، ثم يتكلم:

ـ بقي ساعة ونصف وينتهي الدوام، لا أظن أني سوف أستطيع إنجاز المهمة.

ويمد بيده الطلب إلى صديقي، يعيده إليه، كأنه يناوله خرقة بالية قذرة، وهو يقول:

ـ اترك الطلب معك، راجعني غداً.

أتدخل:

ـ ولكن صديقي مسافر غداً.

يسأله الموظف كأنه يقطع بسكين عنق دجاجة:

ـ في أي ساعة سيكون السفر؟

صديقي يتكلم ببساطة وعفوية:

ـ غداً، التاسعة ليلاً.

الموظف يرفع كتفيه ويتكلم كأنه ينفض ندف الثلج:

ـ تعال غداً، في الساعة العاشرة صباحاً.

أتدخل قائلاً:

ـ لو رجعنا اليوم عند نهاية الدوام، بعد ساعة ونصف، هل يمكن أن نجد الصورة جاهزة؟

الموظف يتكلم وهو يشير بيده إلى صديقي:

ـ بدأت أشك في أنك أخوه، أو صديقه، كأنك محاميه الخاص.

أشعر بالغضب كل الغضب، يتكلم كأنه ذئب، كأنه مدير المدير بل مدير كل المديرين، أود أنهض لأخرج، ولكن أمسك نفسي، أرد بحدة مؤكداً:

ـ هو أكثر من أخ أو صديق، هو أنا وأنا هو.

أخي المدير يكلمني بهدوء:

ـ أنا سأتصل بك عند نهاية الدوام، إذا أصبحت صورة السجل جاهزة تأخذها مني أنا.

أشعر بالرضا، لا شك أنها ستصبح جاهزة، أخي لن يخذلني، سيأمر في غيابنا الموظف أن يعد الصورة.

أخي يسأل:

ـ إلى أين مسافر صديقك؟

أفرح بالسؤال، أخي يهتم بي وبصديقي، ولكن لماذا هذا التأخر في الاهتمام، لعله يريد أن ينسيني حماقة الموظف الذي يعمل عنده، أجيبه:

ـ إلى شركة للنفط في دبي.

أخي يرجع بمقعده إلى الوراء، يرفع رأسه، مثل طاووس، ليقول:

ـ نحن نفخر أن يكون لنا سفراء في الأقطار العربية، عملك هناك هو جزء من رسالتك القومية، هي مهمة وأمانة، فنحن شعب عربي واحد، والأرض العربية واحدة، سواء هنا أو هناك في الجزائر أو عمان أو اليمن، وحتماً ستعود إلينا مهما طالت الغيبة، الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم هاجر من مكة إلى المدينة لنشر الدعوة، وبقي فيها خمسة عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً، لا أعرف بالضبط، فأنا لست مختصاً في الدين ولا في التاريخ، ليست مشكلة، فلتكن عشرين عاماً، ثم رجع إلى مكة ليتم رسالته، وأنت سترجع إلى بلدك مهما طال الغياب، وسأقول لك كما قال هارون الرشيد للسحابة،

أنت تعرف قوله الشهير، وأتمنى ألا تنسانا، اتصل بنا من هناك من الخليج، ولو كلفك الاتصال.

ويضحك، كأنه يلقي مزحة، يقهقه،أتذكر القردة التي كانت تقهقه داخل القفص في حديقة الحيوان، نقهقه معه، مع انتهاء القهقهة أنهض، أمد يدي إلى أخي أشكره، كذلك يفعل صديقي.

ألتفت إلى الموظف، أتنبه إلى أنه وحده كان لا يقهقه، أنظر في وجهه السمين، ولحيته السوداء الكثة، أراه يحملق بي، كأنه يرتاب في أمري، كأنه يتهمني بشيء ما، أحاول الهرب من نظرته، كم يشبه أخي، كأنه هو، لولا لحيته.

الموظف يقول لأخي المدير كأنه يلقي مسلمة لا جدال فيها:

ـ سأغادر المديرية بعد قليل، عليَّ مراجعة المصرف.

غمامة سوداء تغشاني تغلق الأفق وتسده، بدأت أحس أن أخي المدير هو الموظف الذي يعمل عنده.

صديقي يسأل الموظف مستفسراً، وهو يحاول أن يقدم له الطلب، مثل تلميذ يقدم لأستاذه واجبه اليومي:

ـ وهذا الطلب؟

ـ أنا سأكتب غيره

ـ واسمي؟

الموظف يجيب:

ـ حفظته، مطيع بن صالح، من حي الصابرين، ماجستير في علم الإدارة.

صديقي يسأل الموظف:

ـ والطابع على الطلب؟

الموظف يتكلم وهو يتجه إلى الباب:

ـ أنا سأضع عليه طابعاً جديداً.

قبل خروج الموظف، يُفتح الباب وتدخل سيدة، الموظف ينحني أمامها مرحباً، كأنه يعرفها، ثم يخرج، أخي المدير ينهض، يلف من وراء مكتبه، بخطوات واسعة يتجه إليها مرحباً، يصافحها بحرارة

بالغة، يشير إليها لتقعد أمامه، ثم يتجه إلينا، ونحن كنا ما نزال واقفين، يقف قبالتنا، يتكلم بسرعة وإيجاز:

ـ غداً في الساعة العاشرة تكون الصورة جاهزة.

هل نسي وعده الاتصال بي عند نهاية الدوام؟ لا ما نسيه، أخي واع وحصيف، ولكن الموظف أخبره أنه سيغادر بعد قليل إلى المصرف.

أخي يسد عليَّ مجال الرؤية، لا أرى سوى قميصه وربطة العنق، لا أرى وراءه السيدة ولا النافذة، لا أرى أي شيء.

*

أخرج أنا وصديقي، مدير مكتب أخي يلتفت إلينا وهو يستدير مع كرسيه الدوار، يعلق:

ـ لم تطل زيارتك لأخيك؟ لم تشرب القهوة عنده؟

أجيبه بهدوء وأنا أرى شاشة الحاسوب وراءه وأوراق الشدة:

ـ هي زيارة عمل.

يعلق بابتسامة عريضة:

ـ تفضل، أقدم لكم القهوة، قهوتي غالية .

أعتذر، أخرج، أنا وصديقي.

أمام المصعد ننتظر قليلاً، ثم نمضي إلى الدرج، نأخذ في الهبوط، الدرجات لا تكاد تنتهي، أحس كأنني أهوى في بئر، سحابات كثيفة قاتمة تلف مع التفاف الدرج، خفافيش سود تمص دمي، أحس بالدرجات متكسرة، أكاد أتعثر، صديقي يقول لي:

ـ لا تستعجل.

*

أخي هو أخي، لا أعرفه كذلك، هذه أول مرة أزوره فيها بعد تسلمه منصب المدير، مرت خمسة أشهر فقط وهو المدير، ليست سبعة ولا تسعة، لم أزره في مكتبه، كيف تغير هذا التغير كله؟ ما السر؟ كنت أتمنى أن يكرم صديقي، لا أن يكرمني؟؟

وأخي مخلص لزوجته، أعرفه حق المعرفة، ولكن ما هذا الاستقبال الخاص لهذه السيدة؟ هل من علاقة له معها؟ لا يعقل، ما هي بالجذابة، ولكنها مثيرة، بل ما هي بالمثيرة ولا الجذابة، الشعر أصفر، ولكنه حتماً مصبوغ، والطول لافت للنظر، ناحلة، كأنها لم تأكل منذ سنة، بل هي في الخمسين، في عمر أخي، كأنها دجاجة شائخة نتف ريشها وانقطع حبل بيضها، صدرها شبه عار، الثياب فاضحة، ولكنها عادية جداً، بل خالية من الذوق والأناقة، لا شك أنه سيقعد أمامها، وسوف تضع رجلاً فوق رجل، وسينحسر الثوب عن فخذيها، وإذا مالت قليلاً نحو المنضدة الصغيرة أمامها فسوف يبرز ثدياها الصغيران الجافان، من غير شك، مثل ضرع عنزة.

زائرة غريبة، حتى إنها لم تتكلم، وهو لم يكلمها، هل هي خرساء؟ حتى الموظف لم يكلمها، إنما انحنى أمامها مرحباً فقط.

ـ هل رأيت الزائرة؟

هكذا أسأل صديقي، ونحن نخرج من المبنى إلى ضجيج الشارع، فيجيبني:

ـ نعم، هذه فرنسية على الأغلب.

أسأله مدهوشاً:

ـ كيف عرفت؟

ـ أما سمعت كيف نطقت: بونجور.

*

عند العاشرة من صباح اليوم التالي أتصل بصديقي بالهاتف الجوال، أقول له:

ـ يؤسفني جداً أن أخي لم يتصل بي يوم أمس، أنا اتصلت به عند نهاية الدوام، فلم أجده، أخبرني مدير مكتبه بأنه خرج، ولا أعرف...

يقاطعني صديقي قائلاً:

ـ لا تقلق، الأمر عادي، أنا الآن أهبط على درج المديرية.

ـ وهل استلمت الصورة عن السجل؟

ـ ذهبت إلى الموظف في مكتبه فلم أجده، سألت عنه، أجابني زميله بأنه لم يأت، فهو اليوم في إجازة، سألته عن موضوعي، فأجاب بأنه لا يعرف شيئاً.

أذهل، أحس بحبل قد شد على عنقي، أقاطعه:

ـ اذهب إلى أخي، ادخل عليه فوراً.

ـ توجهت إلى مدير مكتب أخيك، نهض لاستقبالي فور دخولي، استقبلني ببشاشة غريبة، ناولني فوراً ظرفاً، وقال لي: تركه الموظف لك أمس عند نهاية الدوام.

أشعر بالبهجة، أحس بالنصر، لقد وفى إذن أخي بوعده، لم تذهب وساطتي عنده سدى، لقد أنجز المعاملة إذن عند نهاية الدوام، ولكن لماذا لم يتصل بي أخي؟.

أقول لصديقي، وأنا أصطنع الفرح، كأنني أكذب على نفسي:

ـ مبارك، هل رأيت؟ لقد وفى أخي بوعده.

يقاطعني صديقي:

ـ ولكن على الظرف كتب الموظف اسمي وتحته كتب : 185 ليرة.

أصرخ سائلاً:

ـ ما معنى هذا؟

يبح صوتي، كأن سكيناً حشرت في حلقي، صديقي يتكلم:

ـ لا أعرف، المهم أني أعطيت مدير مكتب أخيك مئتي ليرة، فقال لي: في المرة القادمة لا تتعب نفسك، ولا تحرج المدير، أنا بخدمتك.

ـ وهل رد لك خمس عشرة ليرة؟

ـ لم يرد شيئاً.

أسمع ضحكة صديقي، وهو على الهاتف الجوال، يقهقه مثل ديك رومي قد ذبح.

*

أقول لأخي وهو على الطرف الآخر من الهاتف:

ـ مـدير مكتبـك قـبض مـن صـديقي مئتـي ليـرة، هـذه هـي الجريمة.

أخـي المـدير يضـحك، يقهقـه، يضـحك طـويلاً، يضـحك وهـو يسأل مستنكراً:

ـ وهل تسميها جريمة؟

ـ نعم جريمة.

أخي على الطرف الآخر من الهاتف ما يزال يضحك، يقهقه، مثل ديك رومي يعدو وراء طفل مذعور يريد أن ينقره، زوجتي إلى جواري تسمع قهقهته، تنظر إلي مدهوشة، أخي يقطع قهقهته، ويتكلم:

ـ ليست جريمة، ولا جنحة، هي أمر طبيعي، الموظف سألني كم آخذ منه، قلت له: هو صديق أخي، يكفي أن تأخذ منه مئة وخمساً وثمانين ليرة، هل تعرف أنـه لا يرضى في العادة أقل من خمسمئة ليرة.

أسأل وأنا أحك شعر رأسي:

ـ هذا كله بعلمك؟

ـ طبعاً، الأمر عادي، هل تريد من الموظف أن يعمل هكذا من غير أجر.

ـ ولكن هذا هو عمله.

أخي يتكلم بهدوء وبرود وحياد كأنه يقرأ في كتاب من كتب القانون لكنه غير مطبوع :

ـ لا ليس عمله، في أثناء عمله كان عنده أكثر من خمسين طلباً مثل طلب صديقك، أنجزها كلها، ثم اشتغل ساعتين بعد الدوام حتى أنجز الصورة لصديقك، هل تعلم أن صورة السجل لا يمكن الحصول عليها إلا بعد أسبوع، كان على صديقك أن يقدم الطلب وينتظر أسبوعاً أو عشرة أيام حتى يحصل على صورة عن سجله، أي خسارة إذا دفع مئتي ليرة وحصل على طلبه في أقل من أربع وعشرين ساعة، نحن ساعدناه، كان سيؤجل سفره، وهو بعد ذلك مسافر للعمل في الخليج، كما قلت، سيقبض هناك بالدولار، ما دفعه

اليوم أقل من أربعة دولارات، أي ثمن فنجان قهوة، بل أقل، وصديقك دفع وانتهى الأمر.

الآن فهمت، كل اللف والدوران من أجل مئة وخمس وثمانين ليرة، الطلب غير صحيح، لغته غير رسمية، الموظفة غير موجودة، لا بد من مراجعة السجلات، راجعني غداً، لأجلك أنا سأكتب الطلب بنفسي، سأضع عليه طابعاً جديداً، كل اللعبة من أجل هذه الحبة، لو طلب منذ البدء ألف ليرة لأعطيناه إياها، كان يجب أن أضع تحت الطلب مئة ليرة، لو فعلنا لكان الأمر قضي، وما احتجنا إلى زيارة أخي، ما هذا الغباء؟ متى سأتعلم؟

أخي يسألني بحدة:

ـ مالك صامت، لا تتكلم، هل اقتنعت؟ هل صدقت؟ بماذا تفكر؟ هل تظن أنا أخذنا رشوة؟

ـ لا أعرف ماذا أقول لك، أنا غير مقتنع.

أخي مرة أخرى يضحك، ضحكة هادئة، وأنا أتخيله وهو يرفع كتفيه، ثم يقول:

ـ ليس من الضروري أن تصدق أو لا تصدق، نحن مقتنعون ونصدق أنفسنا.

ثم يتكلم بلهجة أخرى مختلفة:

ـ اليوم سنتناول العشاء.

أرد عليه وأنا أتذكر الحلم وسلة التين وثعبان النيل الأسود وصدر كليوبترة الملدوغ:

ـ أنا آسف، اعذرني أنا اليوم مشغول.

ـ أنت على خطأ، إلى متى ستبقى متخلفاً عن هذا العصر، كل شيء تطور، يجب أن تفهم الواقع، لا تعزل نفسك عن الناس، أنت تعيش في مجتمع، لا تخطئ بحق نفسك، إذا بقيت على هذا العقل فأنت ترتكب في الواقع أكبر جريمة بحق نفسك وبيتك وأولادك.

الآن حصحص الحق، أنا مجرم.

رأيته قبل ثلاثين عاماً في أحد الأفلام وهو يعلق حبلاً في وسط الغرفة ثم يشنق نفسه، لم أتفق معه آنئذ، ولكن اليوم أجد له ألف عذر، وأتمنى الآن لو أنني كنت قد شنقت نفسي مثله، ولكن لم أكن أملك المبرر آنئذ، كنت مثله شاباً في مطلع حياتي، وكنت أظن الحياة جميلة، وأن الناس جميعاً طيبون، ولكن كان هو أكثر وعياً مني، لقد عرف كل شيء.

أخي يصمت قليلاً، يعود إلى الكلام، وقد غير لهجته:

ـ اترك الموظف وصديقك وصورة السجل، انس هذا الموضوع، اليوم أنت وزوجتك وابنك هاني، مدعوون لنتناول طعام العشاء.

رأيت في فيلم آخر المحقق وهو يقول للبريء المتهم بصوت هادئ ناعم، اعترف، سنخفف عنك الحكم إذا اعترفت، وأنا أقول لأخي بصوت قاس هذه المرة:

ـ أنا آسف قراري هو القرار.

يضحك ضحكة ناعمة، ويهمس:

ـ لا بأس، هو قرارك، وأنا أحترمه، ولكن كثير من القرارات تتغير أو تعدل أو تخترق.

زوجتي تهمس:

ـ أي قرار؟ أنا لا أفهم أي شيء؟

أشير إلى زوجتي أن تصمت، أخي يتابع كلامه:

ـ أنت زعلان، وأنا سوف أصالحك، أنا أعرف أنك تختلف عني، وأنا أقرّ لك بحق الاختلاف، ولكن اختلاف العقول لا يمنع اتفاق البطون، بل لعل اتفاق البطون يزيل اختلاف العقول.

لم أتنبه إلى بطنه ونحن في زيارته، الآن اتضحت صورتها، بطنه كانت منتفخة، ممتلئة، وربطة العنق تعلوها، تنام عليها، تتكئ، مثل وسادة، لا بد لكل مدير من كرش، كما أنه لا بد لكل ملك من عرش.

ـ أنت عندك الطعام هو كل شيء.

ـ وهل تستغني أنت عن الطعام؟

يدخل ابني هاني، يسأل أمه:

ـ أبي غير طبيعي، من يكلمه على الخط؟

زوجتي تعلق:

ـ عمك يدعونا إلى العشاء، وأبوك يعتذر.

هاني يصيح:

ـ أبي أرجوك، لا ترفض دعوة عمي، أنا أحب عمي.

أقول في نفسي: وأنا أحب عمك أيها الولد، أحبه قبلك، ولكنه اليوم هو المدير؟ هل تحب المدير؟ أم هل تحب عمك؟ ولكن لك العذر، أنت ما رأيته ولا رأيت مدير مكتبه ولا الموظف ولا السيدة الزائرة ولا سلة التين.

أخي يتابع كلامه:

ـ الدعوة إلى المطعم، وهناك حفل ساهر، مناسبة لا يمكن أن تفوت.

ـ هذا يزيد من إصراري على الاعتذار.

زوجتي تسأل هامسة:

ـ لماذا هذا الرفض؟

أرد عليها هامساً:

ـ الدعوة إلى مطعم، وفيه حفل ساهر.

زوجتي تعلق:

ـ هذا أجمل، نحن بحاجة إلى الخروج من البيت والترويح عن النفس.

أخي على الطرف الآخر من الهاتف يقرر:

ـ لا داعي للحوار أو النقاش، ابني سالي سيمر بكم في الثامنة والنصف مساء ليأخذكم بسيارته.

ثم يضع السماعة، أتخيله وهو يخبط بالمطرقة الخشبية على المنصة أمامه ويقرر وقد ارتدى ثوب القضاء المقدس، أضع السماعة

أيضاً، أرتدي ثيابي وأخرج، علي أن أمر بصديقي، لأكون معه في المطار حوالى السابعة.

*

حوالى التاسعة ليلاً، وأنا ما أزال في المطار، يرن الهاتف الجوال، هي زوجة أخي تتصل بي:

ـ علمت أنك في المطار.

ـ نعم، أنا في وداع صديق لي مسافر إلى الخليج.

ـ متى ستنضم إلينا؟

ـ بعد ربع ساعة، أنتظر إقلاع الطائرة.

ـ هل دخل صديقك إلى قاعة المسافرين؟

ـ طبعاً.

ـ ما دام صديقك قد دخل إلى قاعة المسافرين، فتعال إلينا، لا تتأخر.

ـ يجب أن أطمئن على صديقي، أريد أن...

تقاطعني:

ـ نحن أولى أن تطمئن علينا، تعال فوراً، لا تتأخر.

*

هل تناولوا طعاماً مسمماً؟ هل أصيبوا بحادث؟ أعرف ابن أخي يقود سيارته بسرعة؟ هل تخاصم ابن أخي في المطعم مع أحد الشباب الماجنين؟ أعرفه عنيداً ومشاكساً؟

عند باب المطعم تثير دهشتي لافتة كبيرة كتب عليها:" المديرية العامة ترحب بضيوفها الكرام"، باقات الزهور صفت على أدراج المطعم، موسيقا صاخبة وأغان أجنبية، في أعلى الدرج صورة مغنية أجنبية تكاد تكون شبه عارية، وتحت الصورة كتب: "الفرقة الذهبية والمغنية الأولى في باريس: جانيت". هي من غير شك المغنية العاشرة، والفرقة ليست ذهبية ولا نحاسية، حتى ولا حديدية، نحن في عصر البلاستيك والورق المقوى والمناديل التي نستخدمها مرة واحدة ثم نرميها.

تنفحني روائح الخمور، أدخل الفناء الصيفي للمطعم، أراه مزدحماً بالموائد، في العمق ألمح أخي وراء مائدة تكاد تلتصق بمنصة الرقص والغناء، ومعه السيدة الزائرة التي رأيتها أمس في مكتبه، وإلى جوارها رجل بدين جداً. أفاجأ بولدي وزوجتي وزوجة أخي وراء مائدة قريبة من الباب، زوجة أخي تقول:

ـ بسرعة، أرجوك اخرج بنا من هذا الجو.

*

في طريق العودة إلى البيت، ونحن في سيارة الأجرة، زوجة أخي تتكلم:

ـ من المؤسف، أخوك يلح علي لأقعد معه إلى المائدة مع الرجل البدين والسيدة الشقراء، والمائدة عامرة بالخمور، والمؤسف أكثر انغماس ولدي في الجو.

وتسحب نفساً عميقاً، وهي تفتح نافذة السيارة، ثم تقول:

ـ كنت أنتظر زوجتك، وفور وصولها اتصلت بك.

يتكلم ابني هاني وهو في المقعد الخلفي من السيارة مع أمه وزوجة عمه:

ـ أنا لم يزعجني سوى ذلك الرجل الطويل القامة، في بدلته السوداء، وقميصه الأبيض، وربطة عنقه السوداء المعقودة مثل فراشة، بل مثل خفاش، لولا أن أمي معي، لكنت ضربته على وجهه.

ـ من هو؟ وما فعل حتى زعجك؟

ابني يتكلم بانفعال:

ـ فور دخولنا برز لنا مثل عملاق، سد علينا المنافذ، وقال أين بطاقة الدعوة؟ قلت له: المدير عمي؟ ابتسم، وقال: تفضلوا، ما ئدتكم محجوزة، وأشار إلى المائدة التي رأيتنا قاعدين حولها، قرب الباب، جادلته، فقال: الموائد كلها محجوزة، أشرت إلى بعض الموائد الفارغة، فلم يجب، أشار بيد، وأغلق الطريق علينا بيد، وهو يقول: من هنا، حسبته مدير المطعم، أو رئيس التشريفات، ثم انضمت إلينا

زوجة عمي، وقالت: هذا مدير مكتب عمي، كيف يختار عمي رجلاً مثل هذا؟

وهل اختاره عمك ليكون مدير مكتبه؟ هو قبله بأربعة قرون أو خمسة، وحتماً سيذهب عمك وسيأتي بعده أربعة مديرين أو خمسة، يتغيرون جميعاً، ويبقى هو وحده، المدير يتغير، ومدير المكتب لا يتغير.

وتتكلم زوجة أخي:

ـ أنا لم يزعجني غير الرجل القصير البدين بلحيته السوداء، وبدلته السوداء أيضاً، كأنه برميل صباغ أسود، تقدم مني وقال: "مدام، زوجك يدعوك، بعد أن سلمتِ على زوجة أخيه، عودي إلى مائدته"، زوجي يظن أني جئت إلى زوجتك لمجرد السلام، أنا جئت إليها لأقعد معها، ولأتصل بك كي تأتي فتنقذنا من هذا الوحل.

أقول لزوجة أخي:

ـ هذا موظف عند زوجك، لعله رئيس لجنة شراء، أو رئيس قسم المحفوظات، أو المسؤول عن تنظيم هذا الحفل.

تعلق زوجة أخي:

ـ كان دائماً يحوم حول أخيك، وحول السيدة الشقراء، رأيته يشعل بنفسه السيكار للرجل البدين، كأنه مرافق أو حارس شخصي.

وتتكلم زوجتي:

ـ اتركوا الحديث عن المطعم، دعونا نستمتع بهذا الجو الصيفي الجميل.

ويرن الهاتف الجوال، وإذا أخي يعاتبني:

ـ ما كنت أتوقع خروجك والأسرة قبل بدء الحفل، خيبت أملي، ما كنت أتوقع منك هذا.

ـ وأنت أيضاً خيبت أملي، ما كنت أتوقع دعوتي والأسرة إلى حفل عام فيه خمرة.

ـ وزوجتي؟ لماذا أخذتها معك؟

ـ هي طلبت مني، لم تكن مرتاحة للجو.

ـ أنت حرضتها.

ـ لا، هي اتصلت بي، وطلبت

ـ أنا أعرف، زوجتك حرضتها.

ـ بل زوجتك لم يعجبها الجو، رفضت القعود إلى المائدة مع ضيوفك، قبل وصول زوجتي.

ـ هذا لأنها متخلفة، من المؤسف أننا في عصر العولمة والانفتاح، وما زلنا نعيش منغلقين على أنفسنا.

ـ أوافقك الرأي، ولكن يجب أن نعرف أنفسنا أولاً، قبل أن ننفتح على العالم، حتى لا نخسر أنفسنا.

أخي يتكلم بلهجة مختلفة:

ـ أردت تكريمك بهذه الدعوة، أنت لم تقدر، حرمت بعض الموظفين عندنا في المديرية من الدعوة ودعوتك، عدد البطاقات محدود جداً، هذه حفلة رسمية، نحن نحتفل بانتهاء الدورة التي أقامتها البعثة الفرنسية للموظفين في مديريتنا، هذه بعثة خاصة قادمة من المعهد العالي لفن الإدارة في باريس، كنت سأعرفك على مديرها، هو رجل متواضع جداً، جاءت هذه البعثة قبل ستة أشهر، لتدرب الموظفين عندنا في المديرية على فن الإدارة، والسيدة التي رأيتها يوم أمس في مكتبي هي نائبة السيد المدير، مختصة في فن الإدارة، كنت سأعرفك إليها، ولكنك خرجت أنت وصديقك بسرعة، حقيقة صاحب الحاجة أرعن، جئت أنت وصديقك من أجل حاجته، لا من أجل زيارتي، وخرجت اليوم بشكل غير لائق، خسارة خروجك والأسرة قبل بدء الحفل.

زوجة أخي تقول لي وهي في المقعد الخلفي إلى جوار زوجتي:

ـ حديثه دائماً طويل، ولو بالهاتف الجوال، هو لا يدفع ثمن البطاقات، قل له وداعاً، واقفل الخط.

سيارة الأجرة تشق الظلام، مبتعدة عن المطعم الواقع خارج المدينة، أستمتع بانطلاقتها في الخلاء والعتمة، ليس ثمة شيء، سوى

الفراغ المريح، الهواء الصيفي الناعم يتسرب إليّ من خلال النافذة، كأنني طائر حطم القفص وطار، السائق يضع في المسجل شريطاً، النغم ينساب رخياً هادئاً خاشعاً، وصباح فخري يشدو كأنه في صلاة:

مــولاي أجفــاني جفــاهن الكــرى والشــوق لاعجــه بقلبــي خيمــا
مــولاي لــي عمــل ولكــن موجــب لعقــوبتي فــاحنن علــي تكرمــا
اســـــق العطـــــاش تكرمـــــا فالعقـــل طـــاش مـــن الظمـــا

ويرن الهاتف النقال، هو صديقي الطيب، يهتف لي:

ـ تأخر إقلاع الطائرة، أقلعت بنا منذ ثلاث دقائق، نحن نحاول الآن الارتفاع إلى ثلاثة عشر ألف قدم، كما يقول القبطان، اتصلت بك قبل أن تنتهي التغطية.

أمد رأسي من النافذة، أنظر في السماء، كأني أبحث عن طائرة في الأعالي، أرى النجوم المبتسمة في تألق، ألوح بيدي لصديقي الطيب، أقول له:

ـ لست وحدك من يحلق، أنا أيضاً أحلق معك.

المنضدة في مدخل المديرية

كرهت المديرية وكرهت زيارتها.

أصعد الدرجات العشرين، أرى باب المديرية منذ بلوغي الدرجة العاشرة، أراه مفتوحاً، هو مفتوح دائماً، ليته يغلق دائماً ولا يفتح، من جانب الباب المفتوح أرى منضدة الحارس القابع وراء المنضدة.

أعرفها جيداً، منضدة حديدية صدئة، منحه إياها أحد المديرين السابقين، الزجاج الذي كان يغطيها تحطم منذ زمان، وبقي غطاؤها الجلدي، هو غطاء قذر متسخ ممزق، بقع القهوة والشاي والزيت والدهن تغطيها كما تغطي الجزر والقارات الخمس سطح الأرض، وتستقر فوقها منفضة للسكائر، هي مملوءة دائماً بأعقاب السكائر والرماد المحترق، كأن أعقاب السكائر تذكارات ماض مجيد لا يراد لها أن تُرمى، وأطراف المنفضة محترقة، بل ثمة مواضع من الغطاء الجلدي للمنضدة محترق، حرقته أعقاب السكائر، ولا يخلو من كتابات بأقلام وخطوط مختلفة، أسماء أشخاص وأرقام، وثمة جهاز هاتف، لونه أحمر فاقع، متسخ جداً، سماعته مكسورة، وقد شد حولها شريط أسود لاصق، وثمة فنجان قهوة عروته مكسورة، وحافته مثلمة، في قعره دائماً بقايا بن جاف.

مشهد مألوف لا بد لي أن أراه كلما زرت المديرية.

ثم أرى الحارس، تارة أرى الحارس ذا الوجه المدور السمين الأسمر القاتم السمرة، بشاربيه الأسودين الكثيفين جداً المتدليين على زاويتي فمه، وبحاجبيه الكثين الأسودين الكثيفين المتقاربين جداً المتلاقيين بين عينيه الصغيرتين جداً، الغائرتين في محجرين كالبئر، ولا بد له كلما رآني أن يسأل بصوته الأجش العريض المرعب:

- إلى أين؟ من تريد؟

وتارة أرى الحارس ذا الوجه المتطاول الأصفر الفاقع الصفرة، ويزيد من طوله صلعته الصفراء المتطاولة، وقد برزت من جانب وجهه أذناه الكبيرتان، وهو يحدق بي بعينيه الواسعتين المدورتين البارزتين إلى أمام مثل شرفتين واسعتين، كأنهما تريدان أن تنقضّا علي، وكلما رآني قادماً سألني:

- إلى أين يا حاج؟؟

ذقني حليقة، وقميصي أبيض فاخر، وربطة عنقي زاهية متألقة، وحقيبتي أنيقة، كيف يصفني بالحاج؟

أحياناً أرى حارساً قصيراً بديناً بطنه مدورة ممتلئة، عيناه صغيرتان، يداه قصيرتان، أراه وهو يقضم لفافة محشوة بالبيض المسلوق والبندورة والفجل، فمه مملوء، يسألني وهو يمضغ اللقمة، فينفحني رائحة الفجل والبيض:

- إلى أين؟ ماذا تريد؟

وأحياناً أرى حارساً ذا لحية سوداء كثة، وهو طويل وبدين، ضخم الجثة، لا أعرف كيف تخطر على بالي فكرة موته، إذا مات لا أعرف أي قبر أو تابوت سيتسع له، سيتعب الرجال كثيراً في حمله، ينهض من وراء المنضدة فور رؤيته لي، أذعر، أتراجع، يضع يديه على المنضدة، فأراهما كبيرتين جداً، أحس بالمنضدة تتزعزع، يصيح بي:

- نعم، ماذا تريد؟؟

لو أصبحت مديراً لأمرت على الفور بإحالة هؤلاء الحراس الأربعة على التقاعد، ولأمرت بإزالة تلك المنضدة من وراء باب المديرية، لا أعرف لماذا الحراس والمنضدة، ولماذا السؤال والجواب، والسؤال واحد والجواب واحد.

اليوم أصعد الدرج، أي حارس من الحراس الأربعة سأصادف؟ باب المديرية مفتوح كالعادة، أرى طرف المنضدة، هي جاثمة في موضعها، مزينة ببقع الزيت والشاي والقهوة، تتوسطها المنفضة المملوءة بالرماد وأعقاب السكائر، أقترب من الباب، ليت

الحارس نائم، ليتني لا أرى أحداً، فأدخل مرة واحدة من غير سؤال ولا جواب، أخطو الخطوة الأولى داخل الباب، تلفت نظري أربعة فناجين جاثمة فوق المنضدة، تدهشني، كلها مكسورة العروة، مثلمة الحواف، أخطو إلى الداخل، وأنا لا أكاد أرى غير الفناجين الأربعة.

أتوجه إلى غرفة المعتمد، لا بد لي من هذه الزيارة المشؤومة إلى المديرية في مطلع كل شهر، لأقبض راتبي التقاعدي، منضدة المعتمد ليست بأفضل من منضدة الحراس عند الباب، بل هي أسوأ، وجه المحاسب وهيئته وشكله ليست بأفضل من الحراس، بل لعلها أسوأ، يده ترتجف وهو يناولني الراتب، يعد المبلغ الهزيل عشر مرات، يتردد وهو يخرجه من الخزانة إلى جانبه، يفتحها، ثم يقفلها ريثما يعد المبلغ، ثم يفتحها، ثم يقفلها، يتأكد من دقة التوقيع، لا بد من أن يطلب في كل مرة بطاقة الهوية الشخصية، لا بد أن يسجل كل البيانات التي تتضمنها.

أدخل عليه، فيناولني بضع أوراق، وهو يقول:

ـ خذ معاملتك، راجع المدير، لا بد أن يدقق كل معاملة بنفسه، قبل صرف الراتب لكل موظف، ولا سيما الموظف المتقاعد، هذه تعليمات المدير الجديد.

أسأله مدهوشاً:

ـ ومن هو المدير الجديد ؟؟؟

يرد وهو يشير إلي بيده، كأنه يصرفني:

ـ ادخل عليه، وستعرفه.

ينقبض قلبي، أحس أن في الأمر مشكلة، أحمل الملف وأمضي إلى المدير، أقرع الباب، وأدخل، أراه في عمق المكتب قابعاً وراء منضدته، أعرفه، كان أصغر موظف في المديرية، باشر عمله فيها قبل تقاعدي بسنة واحدة، قبل أربع سنوات فقط، ولكن كيف قفز إلى منصب المدير؟؟.

بيني وبينه مئة خطوة، امتداد ثلاث غرف، ولكن الطريق إليه مفروشة ببساط من حرير، الأرض مغطاة بسجاد فاخر، والستائر

المخملية مسدلة، والمكيفات الثلاث تضخ هواء بارداً ناعشاً، كم تود لو تنام قبل أن تصل إليه، والمقاعد الفاخرة مركونة على الجوانب، واللوحات الفنية الكبيرة تزين الجدران، والكتب المجلدة تجليداً فاخراً تملأ رفوف المكتبة الأبنوسية وراءه، وثمة رف خاص للكؤوس الذهبية والفضية وأواني الكريستال.

منضدته بطول مترين ونصف المتر، لها انعطافة بعرض متر ونصف المتر، كأنها حاملة طائرات، زجاجها نظيف لا مع متألق، كأنه الكريستال، وهو قابع وراءها، بقامته القصيرة، ولا يكاد يظهر من ورائها غير رأسه، وأمامه شاشة حاسوب رقيقة كالهواء، وإلى جواره أجهزة هواتف أربعة، وعلى المنضدة آنية زهر فاخرة، وزهور حية يضوع منها العبق، ينهض لاستقبالي، يغادر موقعه، يقترب مني، يمد يده إلي، أصافحه، فيقترب هو مني، يعانقني، أهنئه بتسلمه الإدارة.

يدهشني هذا اللطف، تأسرني هذه اللباقة، عاصرت من قبل أحد عشر مديراً على مدى ثلاثة وثلاثين عاماً، لم ألق من قبل مثل هذا الترحيب من أي مدير سابق وأنا على رأس عملي، ما هذه اللباقة؟ شيء جميل حقاً، أذكر فوراً الحراس الأربعة، لعله صرفهم، من المؤكد أنه لا يريد أي حارس عند الباب، ولا شك في أنه سيرفع تلك المنضدة، يتناول مني الملف، يأخذ في تصفحه، يدعوني إلى الجلوس في مقعد مقابل منضدته الفاخرة، يكرر ترحيبه، ويؤكد أن غايته من تدقيق المعاملة بنفسه هي أولاً مقابلة الزملاء القدامى المتقاعدين، وليتلافى أخطاء حدثت في عهد المدير السابق، لأن بعض المتقاعدين أخذوا أكثر مما يستحقون، هو مجرد خطأ بسيط هنا أو هناك، قد يكون الخطأ في مبلغ صغير، ولكن مثل هذا المبلغ عند عشرين متقاعداً وعلى مدار السنة يشكل ميزانية كبيرة، يوضح لي هذا كله، وهو ما يزال واقفاً أمامي يتصفح ملفي، ثم يهم بالقعود قبالتي في مقعد فاخر، ولكن الهاتف يرن، فيعتذر إلي بلباقة، فيضع الملف على المنضدة الفاخرة، ويمضي إلى منضدته، يتخذ موضعه وراءها، يرفع سماعة

الهاتف، ويأخذ في الكلام، كأنه يتابع حديثاً كان قد انقطع، وأنا لا أكاد أرى منه غير رأسه، وهو يقول:

ـ لا، لا يمكن أبداً أن أعيش مع هذا الأثاث المستعمل، المدير السابق له ذوقه، وأنا لي ذوقي، وهذه المنضدة لا أعرف كيف يمكنني أن أعمل وراءها، أعرفك صاحب أفضل محل للمفروشات المكتبية، ولي ثقة بذوقك، أريد تبديل كل قطعة في مكتبي، حتى اللوحات الفنية سأغيرها، أحضر معك دفتر العروض والموديلات، ولكن أريد أحدث دفتر، أنتظرك عند نهاية الدوام، لا تقلق، الدفع نقدي مباشر، لا تقلق، أنا غير المدير السابق، لست بحاجة إلى موافقة مسبقة، أنا مفوض بالصرف، ليس هناك سقف، المبلغ الذي أوقع عليه يصرف فوراً، أريد بيع هذا الأثاث، كله، حتى مفاتيح الإنارة سأغيرها، أنا أقدر موقفك، هذا من حقك، فأنت لا تستطيع شراء أثاث مستعمل حتى لا تسيء إلى سمعة محلك، ولكن لا شك أنك تعرف من يشتري الأثاث المستعمل، ماذا سأفعل بهذا الأثاث الذي لا أرتاح إليه، نعم، هو إرث المدير السابق، وأنا مستعد لبيعه بأي ثمن، لا بأس، أنتظرك هنا عند نهاية الدوام، تعرف واحداً من مشتري الأثاث القديم، هذا جيد، أحضره أيضاً معك، وليحضر معه سيارة نقل، ليحمل معه الأثاث كله فوراً، لا تقلق، لجنة الشراء أنا شكلتها كما أريد، ستقبض سلفاً قبل الاستلام.

وقبل أن يضع السماعة، يدخل الآذن الخاص بمكتبه، وهو يحمل دلة قهوة عربية فاخرة، هي من فضة، مزخرفة بالذهب، عنقها مثل طائر الطاووس، يصب لي القهوة في فنجان من كريستال ملون فاخر، أتناول منه الفنجان، فيذهلني العبق الفاغم، لا أعرف هل أتأمل الفنجان أم هل أشم رائحة الهال أم هل أرتشف القهوة؟

المدير وهو قابع وراء مكتبه مثل القنفذ يكلم الآذن قائلاً:

ـ كما أوصيتك، لا أريد أن أراك كل يوم في هذه البدلة، غداً تمر بمحل الأناقة، وتشتري أربع بدلات جديدة، مع قمصان جديدة، وربطات عنق فاخرة، وخمسة أحذية، أحضر الفواتير وأنا أصرفها

لك، أريدك أن تدخل هنا على ضيوفي كل يوم في كامل الأناقة، حليق الذقن، مسرح الشعر، ولا تنس شراء زجاجة عطر، لا تدفع، أحضر الفواتير فقط، وأنا أصرفها لك.

الآذن يخرج، المدير يلتفت إلي ليقول لي بصوت ناعم حاد كزقزقة الفأر:

ـ أنت عملت في هذه المديرية، وتعرف، تأتينا وفود من بلاد العالم كله، زميلي المدير السابق غيّر العام الماضي كل شيء، ذوقه جيد، ولكن أنا لا أريد الجيد، ولا الجيد جداً، أريد الممتاز والرائع، ولا بد دائماً من التغيير، أنا يهمني حتى الآذن، لأنه يمثل وجه المديرية، هو يعطي صورة عن المديرية، وأنا لست كالمديرين السابقين، أنا قادر على مقابلة المدير العام كل ساعة، وهو لا يرد لي أي طلب، وقد وضع تحت تصرفي ميزانية جيدة خاصة بالأثاث.

أقول له:

ـ لي رجاء عندك.

ينظر إلي بعينيه البارزتين، متسائلاً من غير أن يتكلم، فأقول له بهدوء:

ـ كل المديريات استغنت عن وظيفة معتمد الرواتب، وحولت الرواتب إلى المصارف، وأصبحت الرواتب تسحب بواسطة بطاقات...

يقاطعني ليتكلم بحدة:

ـ فهمت قصدك، ولكن لا تنس، الحاسب الآلي قد يخطئ، لذلك لا بد من التدقيق، عمل الإنسان أفضل من عمل الآلة، ولا أستطيع الاستغناء عن الموظفين في المديرية، ولذلك طلبت ملفات الموظفين كلهم، ولا سيما المتقاعدين، لأنني وجدت فيها بعض الأخطاء، ويؤسفني أنني لم أدقق معاملتك، ولا أستطيع تدقيقها الآن فوراً، يمكن أنت تمر غداً، لقبض راتبك التقاعدي، فرق يوم واحد لا يعتبر مشكلة.

وينهض من وراء مكتبه، أنهض، يمد يده، يصافحني بحماسة، يسير معي عبر الغرفة الواسعة المستطيلة، يعبر عن سروره برؤيتي،

يؤكد لي تقديره للجيل القديم، يأبى إلا أن يرافقني حتى باب غرفته، وعند الباب يشد على يدي مودعاً، وهو يؤكد أنني سأقبض راتبي التقاعدي غداً.

أتوجه إلى الباب الخارجي، أرى الحراس الأربعة، يقفون عند الباب، أنظر إلى المنضدة الحديدية الصدئة، وبقع الزيت والشاي والقهوة تملأ غطاءها الجلدي المتسخ والممزق، أرى فوقها أربعة فناجين، ومنفضة السكائر ممتلئة بالرماد وأعقاب السكائر، وأرى على المنضدة دفتراً كبيراً، ذا أوراق مستطيلة مفتوحاً.

يتكلم الأربعة، الواحد منهم في إثر الآخر، في إيقاع ثابت، كأنهم يقرؤون بلاغاً عسكرياً:

ـ في المرة القادمة، لا بد أن تبرز قبل دخولك بطاقة هويتك الشخصية.

ـ وتتركها عندنا، نحن الأربعة.

ـ وأن تسجل اسمك، وساعة دخولك.

ـ وساعة خروجك.

ـ هذه هي التعليمات الجديدة للمدير الجديد.

ويعم صمت مذهل، أحدق فيهم، كأنني أرى وجوههم المرهقة أول مرة، ويعودون إلى الحديث، كأنهم جوقة، ولكن الواحد منهم يتكلم بعد الآخر، وبإيقاع هادئ حزين:

ـ سامحنا أستاذ، نحن نعرفك، ونحترمك.

ـ ولكن كنا قساة معك ومع كل المتقاعدين من الجيل القديم الطيبين من أمثالك.

ـ كنا نسألك بفجاجة: من أنت؟ وماذا تريد؟ وإلى أين أنت ذاهب؟.

ـ ونحن نعرفك حق المعرفة.

ـ كانت تلك تعليمات المدير القديم.

ـ وتعليمات المدير الجديد أشد.

أتأمل وجوههم، لقد شاخوا، وجوههم جميعاً علاها الشحوب، برزت عظام الوجنتين، تغضنت الجباه، غارت العيون، كأنني أراهم أول مرة، كأنني لم أرهم في مطلع الشهر الماضي، وهم فتية أقوياء عنيدون شرسون.

ويعودون إلى عزف النشيد الجنائزي:

ـ اعذرنا وسامحنا.

ـ نحن هنا عبيد مسخرون.

ـ لا قوة لنا ولا حيلة.

ـ وعلينا من الآن فصاعداً أن نداوم نحن الأربعة هنا معاً.

ـ من السابعة صباحاً إلى الخامسة مساء.

ـ وقد يدعونا المدير لنداوم ليلاً.

ـ ولا يسمح لنا أن نغادر موضعنا.

أقول لهم وأنا مشفق، وغير مصدق:

ـ ولكن لم أر أحداً منكم عندما دخلت؟!.

تعلو وجوههم الصفراء الناحلة ابتسامة، ثم يتكلمون:

ـ دخلت ونحن الأربعة كنا هنا واقفين.

ـ مررت بنا سريعاً كأنك لم تر أحداً منا.

ـ نحن الأربعة كنا هنا لم نتحرك من مواضعنا.

ـ مثلنا مثل هذه الطاولة.

ـ وهذه الفناجين الأربعة شاهدة علينا.

أنظر إليهم، أتأمل وجوههم المرهقة، أقول لهم:

ـ اعذروني، حقيقة دخلت مستعجلاً، وذهني مشغول، ولم أسلم عليكم، سامحوني.

ثم أمد يدي إليهم، أصافحهم، واحداً واحداً، أتأمل وجوههم الطيبة، أرى ذقونهم الخشنة غير الحليقة، ألمس بسمة في عيونهم، أودّ لو أعانقهم واحداً واحداً، أودعهم وأمضي أهبط على الدرج، وأنا ألقي نظرة أخيرة على المنضدة الحديدية الصدئة ذات الغطاء الجلدي

الممـزق المتسـخ وبقـع القهـوة والشـاي والـدهن والزيـت تغطيهـا، مـع فناجين أربعة، كلها مكسورة العروة مثلمة الحافات.

صندويشة فلافل

تحت المطر المنهمر رذاذاً ناعماً في مطلع الخريف، يخرج من إعدادية الحكمة، يثبت نظارته السميكة على عينيه، يضغط على حقيبته الجلدية، وهو يحملها تحت إبطه، يمضي سريعاً على الرصيف، بمعطفه البني الطويل، يود الابتعاد عن الطلاب المتدافعين من حوله، يمر بسينما أوغاريت، يختلس نظرة عجلى من الصور الفاضحة المعلقة في واجهة السينما، ثم ينظر بعيداً عنها، يخشى أن يراه أحد من طلابه، يقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، داخلاً بين السيارات المزدحمة، ظهره المحدودب قليلاً يزداد احديداباً تحت المطر المنهمر رذاذاً، يدخل صيدلة المعرفة، الواقعة عند الزاوية، يشتري دواء الحموضة في المعدة، ويقطع الشارع ثانية إلى الرصيف المقابل، داخلاً بين السيارات غير منتظر توقف إشارة المرور، يمر سريع الخطا بمقهى الفانوس، ويمضي إلى محل الفيحاء لبيع الفلافل، في داخل المحل، وسط المزدحمين، يقف يقضم صندويشته، وهو يضغط على حقيبته الجلدية المحمولة تحت إبطه، يلقي نظرة سريعة على المزدحمين في المحل، ليس فيهم من يعرفه، ليس فيهم أحد من طلابه، يرتاح إلى ذلك، ولكن كل من حوله من الشباب، هو وحده الكهل، بل العجوز، بعد شهرين يحال على التقاعد، بعد شهرين سيبلغ الستين، ينظر في المرآة المعلقة أمامه، ثم يدير وجهه، إلى جانبه شاب رث الثياب، لعله عامل بناء، يتناول الشاب من البائع كأس لبن، يتحاشاه، يخشى أن ينسكب اللبن على معطفه البني الطويل، يود أن يأخذ هو أيضاً كأس لبن، يتردد، ثم يقلع عن الفكرة، لا يريد انسكاب ولو قطرة من اللبن على معطفه، يقضم اللقمة الأخيرة، يخرج من المحل، يمسح فمه، وهو يمضغ اللقمة الأخيرة.

ينعطف إلى الشمال، يقف في الزاوية عند بائع الصحف، ينقده خمس ليرات، يستل صحيفة محلية، ويمضي، من غير أن يتكلم، وهو

يمضغ اللقمة الأخيرة، خطاه تسير به نحو مقهى الفانوس، وقد رفع حقيبته الجلدية فوق رأسه ليتقي المطر، وقد ازداد غزارة، يراه أمجد على الرصيف المقابل، يحييه عن بعد بيد مرفوعة، فيرد عليه ممتعضاً بإشارة من يده، وهو يبتلع آخر ما تبقى في فمه من اللقمة الأخيرة، يدخل المقهى، يمسح قطرات المطر عن حقيبته، يلعق بلسانه أطراف فمه، خشية أن يكون قد علق بها شيء من الفلافل، يتخذ لنفسه مكاناً في ركن قصي من عمق المقهى، بعيداً عن الواجهة، لا يريد أن يرى أحداً، ولا يريد لأحد أن يراه، يحضر له النادل كأس زهورات، يبتلع حبتين من الحبات المضادة للحموضة، يبسط الصحيفة على المنضدة أمامه، يلقي عليها نظرة سريعة، لا جديد، حتى الجديد تافه ولا قيمة له وليس بجديد، من يقرأ التاريخ حق القراءة لا يجد بعد ذلك أي جديد، وهل من قارئ للتاريخ مثله، وهو الذي قرأ الكامل في التاريخ عشر مرات؟ الجديد الوحيد هو الأسماء الجديدة في صفحة الوفيات، يدخل صالح، زميله في إعدادية الحكمة، أستاذ الرياضيات، يقعد إلى جواره، يسأله ممازحاً:

ـ كيف هي الفلافل اليوم؟

يصمت، لا يجيب، الغيظ يأكله، يلعن في سره أمجد، وحده أمجد من رآه خارجاً من محل الفلافل، وهو الذي أخبر صالح، وهذا صالح يسخر منه، هو الجد، صاحب عشرة أحفاد، يتناول الفلافل في الشارع، كأنه لا طعام في بيته، كأن زوجته لا تعد الطعام، أي عار هذا؟؟ يرشف آخر ما تبقى في كأس الزهورات، يترك الصحيفة ويخرج، وهو يضغط على حقيبته الجلدية، ويثبت النظارة السميكة على عينيه.

المطر في الخارج يزداد غزارة، لا يبالي، يمضي تحت المطر، ملتفاً بمعطفه البني الطويل، عند الإشارة الضوئية أمام المقهى يقف يتنظر، نشيش عجلات السيارات يزعجه، تمر سيارة مسرعة، عجلاتها تغطس في رامة من ماء المطر، يناله رشاشها الموحل، يلعن ويشتم، يقطع الشارع، يمضي إلى مكتبة الثقافة، هناك من غير شك

سيجد أمجد، زميله في إعدادية الحكمة، أستاذ اللغة العربية، يدخل المكتبة غاضباً، يرحب به زاهر، صاحب المكتبة:

ـ أهلاً أستاذ عزيز، جئت في وقتك، عندي زبون يريد شراء نسخة أصلية من كتاب الكامل في التاريخ، وهو مستعد لدفع الثمن الذي تطلبه.

يزداد غضباً، يسأله:

ـ هل مر بك أمجد؟

ـ نعم، وذهب إلى مكتبة الزهراء، لم تجبني؟ هل تبيع نسختك من كتاب الكامل؟ عندي لك بدلاً منها نسخة جديدة مجلدة ومذهبة؟ ماذا قلت؟

ـ نسختي عليها تعليقات، قرأتها عشر مرات،لا أبيعها ولا أرضى بدلاً منها عشر ين نسخة جديدة مذهبة.

يغادر المحل، وهو يلعن في سره ويشتم، يمضي على الرصيف المزدحم بالمارة والباعة، المطر ينهل غزيراً، يلتف بمعطفه البني الطويل، يدخل مكتبة الزهراء، لا يرى أمجد، يخرج من غير أن يسأل صاحب المكتبة عن أمجد، أين يمكن أن يجده؟ لا شك أنه اشترى جريدة وقصد الحديقة العامة، سيذهب إليه ولو في آخر الدنيا، سيقلع عينه، لماذا يحدث الناس عنه، لماذا يخبرهم أنه تناول الفلافل؟ هل من عار إذا تناول مرة الفلافل في السوق؟ ثلاجته مملوءة بالطعام.

يتجه الحديقة، المطر يخف، يعود رذاذاً ناعماً، يكاد ينقطع، ولكن أطراف الشوارع ما تزال حافلة ببرك المطر، والسيارات المستعجلة ترش الناس، وهم يشتمون ويلعنون، وهو يشتم ويلعن، الشمس تشرق من خلال فرجات في الغيوم، ينتصب قوس قزح، الكون بهيج وجميل، ولكنه مستاء، من أمجد ومن المدرسة ومن الطلاب ومن صالح، لا يعرف حقيقة لماذا هو مستاء؟ ولكن لا بد من أن ينال من أمجد، سيعاتبه ويقلع عينه.

على الرصيف وهو يهم بقطع الشارع أمام الفندق السياحي متجهاً نحو الحديقة العامة، يصادفه صديقه تيسير، يستوقفه، يحييه بمصافحة حارة، وهو يهتف:

ـ منذ زمن ما رأيتك، أين أنت يا رجل؟ لا تقل من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت؟ هيا، أنا أدعوك لتناول الغداء في مطعم الملك، افتتح أخيراً هنا خلف الفندق، يقدم صندويشة شاورما بسعر صندويشة الفلافل، هي أطيب منها وأنفع.

يرفع نظارته السميكة عن عينيه، يضغط على الحقيبة تحت إبطه، يصيح به:

ـ أمجد هو الذي أخبرك أني تناولت الفلافل، أنا أعرف، سأبحث عنه ولو تحت الأرض، سأقلع عينه.

يغادر صديقه تيسير من غير أن يودعه، يعبر الشارع، وسط السيارات المتزاحمة، وهو لا يكاد يبصر.

على الرصيف المطل على الحديقة يغذ الخطا نحو المدخل، يستعجل، الشمس دافئة، خيط المطر انقطع، الحديقة مغسولة بالمطر، الأشجار متألقة الخضرة، ولكنه في الداخل يشتعل غيظاً.

يهبط على الدرج العريض، ملتفاً بمعطفه البني الطويل، لا بد أن يجد أمجد أمام البركة، يعرفه يرتاد الحديقة دائماً، ولا يقعد إلا أمام البركة، الصبايا والشباب كالأزهار ينتشرون في الحديقة، يشد ظهره، يحاول تنسم الهواء الناعش، الشمس دافئة، ولكنه من تحت نظارتيه السميكتين يبحث عن أمجد، وقد أعد قائمة طويلة بعشرات المآخذ والأخطاء، يستطيع أن يجعله كالنملة، سيجعله يتمنى الموت ندماً على ما فرط في حق صاحبه؟ لماذا يخبر الناس أنه رآه خارجاً من محل الفلافل وهو يمضغ اللقمة الأخيرة.

أمام البركة الواسعة، والماء يتطاير من نافورتها، يقعد، لا بد أن يأتي أمجد، ليته ما ترك الجريدة في المقهى، الأبله صاحب مكتبة الثقافة يعرض عليه بيع الكامل في التاريخ، هو مستعد لبيع بيته، وليس مستعداً لبيع هذا الكتاب، وقد قرأه عشر مرات.

هذا هو صديقه جان يتجه نحوه، وقد ابيض شعر رأسه، وانحنى ظهره، ليته ما رآه، لا يحب أن يرى أحداً ولا يريد أن يسلم عليه أحد، ينهض كارهاً، يتلقاه ببشاشة، يتصافحان، يدعوه للقعود، ولكن جان يعتذر، يقول له:

ـ نصيحتي لك، لا تتناول الفلافل من محل الأمير .

يدهش، يقشعر بدنه، ينتفض غضباً، يصيح به:

ـ أستحلفك بالسيد المسيح والسيدة مريم، وبكل الأنبياء والرسل، بالتوراة والإنجيل، أن تصارحني من أخبرك أنني أكلت اليوم صندويشة فلافل؟

جان يدهش، ينظر إليه محملقاً، يقول له:

ـ أقسم لك بكل الأنبياء، لم يخبرني أحد، وإنما أنا أنصح لك، لأنني الآن ذاهب لزيارة حفيدي في مشفى الهلال الأحمر، أمس تناول صندويشة فلافل من محل الأمير، وأصيب بإسهال حاد وارتفاع في الحرارة، وأنا ..

ـ لا أصدق، أمجد هو الذي أخبرك..

جان يقول له، وهو يمضي:

ـ اعذرني أنا مستعجل، أردت نصيحتك، أنا ما رأيت أمجد منذ شهر.

يلقي بنفسه في المقعد، لابد أن أمجد أخبر صالح، وصالح رأى تيسير، وتيسير رأى جان، لا أصدق، سأبقى هنا إلى المساء، لابد أن يأتي أمجد، رأس البلاء.

الماء يتقافز أمامه من نافورة البركة، كأنها عذراء تتراقص أمامه، كم هي رقيقة وشهية، يود لو يضع فمه فوق النافورة، ليشرب من الرذاذ المتطاير، تمر أمامه صبية في قميص ضيق مفتوح عند الصدر، فجأة، يعتريه الشعور بالكآبة والامتعاض، يحس بالقهر، لا ليست الصبية هي السبب، وإنما أمجد هو السبب، ليأت أو لا يأتي، لتبلعه الأرصفة، وليذهب إلى الجحيم.

ينهض، يمضي إلى المقصف الصغير المقابل للبركة، يشتري كازوزة كولا سوداء، يقف أمام المحل، يرفعها إلى فمه، والشمس تتسلل إليه من خلال الأغصان، كم الحياة جميلة، ولكن لا بد من منغصات، وفي مقدمتها أمجد.

ـ بالهناء والشفاء، أستاذ عزيز، واضح أنك أكلت اليوم صندويشة فلافل، وثقلت على معدتك.

هكذا يأتيه من خلفه صوت أشرف، يعرفه حق المعرفة، يلتفت إليه غاضباً، يغص بالكازوزة، يختنق، يسعل سعالاً حاداً، يضع الزجاجة أمام البائع، يلتفت إلى أشرف، يمسك به من عنقه:

ـ أقسمت عليك بالله، أخبرني من قال لك إني أكلت اليوم صندويشة فلافل؟

أشرف يضحك، يقول له ممازحاً، وهو ينقر بإصبعه على صدر معطفه البني الطويل:

ـ العصفورة.

ويشد بيده على عنقه يريد خنقه وهو يصيح به:

ـ أنا سأذبحك وأذبح العصفورة.

أشرف ينزع يد صاحبه عن عنقه، يقول ضاحكاً:

ـ اسمع، أنا كنت أمزح.

يجن جنونه، يضغط على الحقيبة تحت إبطه، ويمضي باتجاه الباب، من غير أن يودع أشرف، أو يعتذر إليه، صدق ظنه إذن، أمجد هو العصفورة، الأمر واضح، ولا يحتاج إلى تفكير، هو المحقق في التاريخ والمدقق، قرأ الكامل في التاريخ عشر مرات، يستطيع أن يعرف حتى ما لم يذكره التاريخ، وموضوع أمجد لا يحتاج إلى تحقيق أو تدقيق، ليس غير أمجد من رآه، وهو صديق صالح وأشرف وتيسير وجان، وهذا أخبر ذاك، ولعل الأفضل أن يأوي إلى البيت، فهو الستر والمأوى والسكن، وفيه سيرتاح من كلام الناس وعيونهم، ولكن لا بد أن يلتقي أمجد غداً أو بعد غد، ولا بد أن يقلع عينه، سيعد له قائمة من ألف بند يحصي عليه فيها عيوبه وأخطاءه.

يغادر الحديقة من الباب الشمالي، يقصد إلى موقف السيرفيس المتجه إلى الأشرفية، يصعد في السيارة، يجد لنفسه مكاناً في المقعد العرضي المواجه لبقية الركاب، يقعد ملتفاً بمعطفه البني الطويل، وهو يضغط على حقيبته الجلدية المحشورة تحت إبطه، يحاول تجنب نظرات الركاب، لكن ما بالهم ينظرون إلى معطفه البني الطويل؟ يعرف أنه قديم، اشتراه قبل أربعين عاماً، ويعرف أنه لبسه في مطلع الخريف، ربما قبل أوان البرد، ولكن الجو اليوم متقلب وماطر، بل بارد، وقد وقاه من البرد والمطر، هل من عيب في لبسه باكراً؟ حتى جان وأشرف وصالح كانوا ينظرون إليه مستغربين، يتطلعون إليه، وما الغرابة؟ ليكن، هو خير من البرد.

ما أردت أن أبقى في البيت وحدي، زوجتي ذهبت إلى بيت ابنة خالتها، هي مدعوة عندها بمناسبة المولود الجديد، كل يوم دعوة وكل يوم وليمة، اليوم ابنة خالتها، وغداً ابنة عمتها، هذه تزوجت وتلك ولدت والثالثة ماتت، وزوجها من الرصيف إلى المقهى، ومن المقهى إلى الحديقة، تترك زوجها وحده، تتركه للشارع والحديقة والمقهى، تتركه لألسن الناس، قالت لي: الثلاجة مملوءة بالطعام، وإذا شئت تناول صندويشة فلافل، أنا أعرف، هي السبب، لولاها ولولا خالتها وبنت خالتها لكنت أكلت في البيت السم، وما رآني أمجد.

سيارة السيرفيس تمر تحت جسر القطار، تبدأ بصعود جبل الأشرفية، ما هو بجبل، هو هضبة عالية، ولكنه يراه جبلاً، يشعر بمتعة والسيارة تصعد فيه.

غداً أتقاعد، أرتاح من المدرسة والدوام، أستقر في البيت، في قمة الأشرفية، أتخذ منه صومعة، لن أغادره لا إلى المقهى ولا إلى الحديقة، لن أرى أمجد ولا جان ولا تيسير، سأخلو إلى نفسي، سأعيد قراءة الكامل في التاريخ، الساعة الآن الرابعة والنصف، لا أظنها عادت إلى البيت، أنا أعرف: لن ترجع حتى التاسعة.

الرعد يقصف والمطر ينهمر، والسماء تغيم، ويعم الكون قتامة سوداء، ما هذا اليوم المتقلب، من مطر إلى صحو، ومن صحو إلى مطر، وأنا من المقهى إلى الرصيف، ومن الرصيف إلى الحديقة.

يشتم الزوجة والأولاد والأحفاد والولائم، يشتم صندويشة الفلافل، لكنها حقيقة لذيذة، ليته يتناول كل يوم صندويشة فلافل، أمجد هو الذي أفسد عليه كل شيء، ولكن من العار حقيقة على رجل في مثل سنه، يبلغ الستين، وصاحب عشرة أحفاد، يقف في محل لبيع الفلافل، ليقضم الصندويشة بين الشباب، وهو أستاذ التاريخ، لو كان في المحل أحد تلامذته لكانت الفضيحة أكبر.

يفتح الباب ويدخل، يفاجأ بزوجته وهي في البيت:

ـ عدت باكراً؟

تجيبه:

ـ مللت من الدعوات والولائم والنساء والأولاد، كل امرأة معها ثلاثة أولاد أو أربعة، أكثر من عشرين امرأة ومئة ولد، في بيت من ثلاث غرف، جننت، عقلي ما عاد يحتمل، صدقني لم أتناول سوى لقمتين، ليتني ما قبلت الدعوة، وما قلت لك: تناول أنت صندويشة فلافل.

ينفخ، يغمغم:

ـ وأنا كنت في الهواء الطلق، من رصيف إلى رصيف، ثم إلى الحديقة الرحبة الواسعة الحمد لله.

ـ والغداء؟ هل بقيت من غير طعام؟

ـ لا، سمعت نصيحتك، تناولت صندويشة فلافل، محل الفلافل ممتلئ ولله الحمد، مثل بيت ابنة خالتك، مئات الشباب من عمال وطلاب وأنا وحدي بينهم الأستاذ العجوز، أقضم صندويشة الفلافل.

ـ أنا أحسدك، ليت لي الآن صندويشة فلافل، هي أطيب من كل الأطعمة، ليتك أحضرت لي معك صندويشة فلافل.

يرد غاضباً، وهو يسخر منها:

ـ صدقت، الفلافل أطيب من طعام العالم كله، لن آكل بعد اليوم في البيت، كل يوم سآكل الفلافل.

تضحك، تعلق:

ـ ولكن في المرة القادمة انتبه إلى نفسك، لا تترك نقاط اللبن والطحينة تملأ صدر المعطف.

صندوق البريد

لا يصلني في الشهر أو الشهرين سوى رسالة، كل يوم أزور مبنى البريد، أنظر من كوته الزجاجية الصغيرة، فلا أرى شيئاً بداخله، ومع ذلك أضع المفتاح الصغير في الثقب، وأديره بعناية، وأنا أحلم برسالة، وأفتح الباب الصغير، وأنظر، ولا أصدق، وأمد أصابعي، أمد يدي، أمسح أرض الصندوق، ولا أجد حتى وريقة صغيرة، أغلق الباب بهدوء، وأرجع القهقرى، بهدوء أيضاً، كمن يرجع إلى الوراء أمام ضريح مقدس.

اليوم، ويالالدهشة، الكوة الزجاجية الصغيرة محجوبة من الداخل بأوراق، الصندوق ممتلئ، حتى إن وريقة صغيرة تكاد تخرج من الشق الصغير في أعلى الصندوق، أستل مفتاحي الصغير، أحاول إدخاله في الثقب، المفتاح لا يستجيب، أحس بالارتباك، لعل الصندوق ليس صندوقي، بل هو صندوقي، ثمة شخص قريب مني ينظر إليّ، لعله يشك بي، لعله يظن أني أحاول فتح صندوق ليس صندوقي، أحس بالارتباك، أخفق ثانية في فتح الصندوق، الرجل ما يزال يرقبني، يقترب مني، يسألني: "كم رقم صندوقك؟؟"، وأجيبه: "هو صندوقي، أخشى أن ينكسر المفتاح داخل الثقب"، ويمد يده، بحركة هادئة منه، يفتح الصندوق، وتتدفق وريقات صغيرة، أتناولها بين يدي الاثنتين، يقول لي الرجل: "هذه الوريقات تشعرك بوجود رسائل مسجلة، عليك أن تستلمها بنفسك من كوة الرسائل المسجلة"، يغلق هو باب الصندوق، يداي مشغولتان بالوريقات، أخشى أن تسقط إحداها، الرجل يدير المفتاح في الثقب، ثم يسحبه، أشير إليه كي يضعه في جيبي، وأمضي إلى داخل المبنى.

أضع الوريقات الصغيرة الكثيرة بهدوء في كوة أمام الموظف الخمسيني المختص بتسليم الرسائل المسجلة، ينظر إلي من وراء نظارته الطبية السميكة، مذهولاً، يسألني: "من أين لك كل هذه الرسائل؟ أيها الرجل الستيني؟ هل تراسل صبايا العالم كله؟"، أقول

لـه، وأنـا أبتسـم: "منـذ سـنة لـم تصـلني رسـالة مسـجلة، واليوم تصـلني آلاف الرسـائل"، يبـدأ الموظـف بالوريقـات الصـغيرة، يسـحبها وريقـة وريقـة، يـدنيها مـن عينيـه، مـن نظارتيـه السـميكتين، يحـدق فيهـا بعينيـه الصغيرتين مثل عيني قنفذ، ثم يصفّها أمامه مثـل أوراق الشـدّة، يرتّبهـا في صفوف، أحياناً يضع بعضـها فوق بعض، كأنـه يلعب لعبـة الفـأل، ترى هل ستكون اللعبة في النهايـة مفتوحـة؟ أم هـل سـتكون مغلقـة مثـل حظــي؟؟ أتابعـه بصـبر، وهـو يعمـل بهـدوء، ثـم فجـأة أراه، وبحركـة سريعة، يلم الوريقـات كلهـا بكلتـا يديـه، يـداه سـواداون، يكسـوهما شـعر أسود غزير جداً، مثل شعر قرد، يحتضن الوريقات، كأنه يحصدها، أو كأنه يقشها قشاً، وهو يلعب في ورق الشدة، يتكلم، وهـو يبتسـم، وكأنـه هو الـرابح، وأنـا الخاسـر، يقول:"هذه الأوراق كلهـا ترجـع إلـى العـام الماضي، مرّ عليها عام كامل"، أجيبه، بعفويـة، وبفـرح مجنـون: "هـذا صـحيح، نعـم، أنـا منـذ سـنة لـم أسـتلم أي رسـالة، لا مسـجلة ولا غيـر مسـجلة"، يبتسـم، أول مـرة أرى أسـنانه الصـفراء، أرى أنيابـه الأربـع المعقوفة، يتكلم ببرود: "للأسف، لا يمكن أن أسلمك إياهـا"، أسـتل مـن جيبـي بطـاقتي الشخصـية، أشـهرها فـي وجهـه، أقـول لـه:"ولكـن، أنـا صـاحب العلاقـة، وهـذه بطاقـة هـويتي الشخصـية"، يـرد بهـدوء:"مـا شككت فيك، ولم أقل إنك لست أنت"، أقول له:"ولكن لماذا لا يمكـن أن تسـلمني إياهـا؟"، يبتسـم، يجيـب، بهـدوء:"لأن الرسـائل عـادت إلـى أصحابها"، أسأل بنزق: "وكيف عادت؟"، يضحك، يرد:" رجعت إلـى مصدرها، إذا لم تستلمها في حينها، تمضـي، مثـل هـذه اللحظـة" ويرفـع حاجبيـه الأسـودين الكثيفـين جـداً وهـو يشـير بهمـا إلـى الـدرج خلفـي، ألتفت، فأرى سيدة في الأربعين تهبط على الدرج، وهي تلتف بمعطـف طويل وسميك من الفرو، يبدو لـي أنهـا لا ترتـدي شيئاً تحـت المعطـف، يتابع الموظف الخمسيني كلامه، فيقول: "إذا لـم تقتنصـها، ذهبـت، إلـى غيـر رجعـة"، أتنبـه إلـى أنـه مـا تـزال أمـامي فـي الكـوة وريقـة، كأنهـا سقطت للتو من بين يديه، أو من السماء، ألتقطهـا، أنظـر فـي تاريخهـا، أقـول لـه مستبشـراً بفـرح مجنـون: "هـذه بنـت هـذه اللحظـة، تاريخهـا

اليوم"، يتناولها مني بأصابعه، أرى مخالب يده، ينظر فيها، أرى طرف الوريقة وقد تمزق بين مخالبه، يقول انظر: "هذه ليست باسمك، ولا تحمل رقم صندوقك، هذه ليست من نصيبك، يبدو أنها وضعت خطأ في صندوقك"، أنظر في الوريقة، وقد وضعها تحت ناظري، أحملق فيها.

أهبط على درج البريد، أجر خطواتي جراً، أحس أني قد هرمت، كأن عشرين عاماً مرت بي، هل كانت الوريقات كلها حقيقة قديمة ترجع إلى العام الماضي؟ هل كان الاسم على الوريقة الأخيرة اسماً آخر غير اسمي؟ السيدة الأربعينية تمر بي، وهي تلف على جسمها معطفها الطويل السميك، يبدو لي معطفها من الفرو الصناعي، هو أبيض، ولكنه متسخ قليلاً، ولاسيما عند العنق، وقد أصبح من المؤكد أنها لا ترتدي شيئاً تحته، تحمل رسالة، يبدو أنها مسجلة، سلمها إياها رجل الكوة ذو المخالب والأنياب وشعر القرد، تفض الرسالة وهي تهبط على الدرج، تقرؤها وهي تمشي، ثم ترميها، تدوسها، وتمضي.

مع الرسالة تسقط وريقة صغيرة، طرفها ممزق.

أستيقظ، أفتح عيني، أنهض وأنا مذعور، أو فرح، لا أعرف، هل أذهب اليوم إلى البريد؟!

المقر الرئيسي للمديرية

تائه، ضائع، قلق، لا يكاد يستقر، ينتقل من مكتب إلى مكتب، يزور هذا، يزور ذاك، يحتسي القهوة هنا، الشاي هناك، أكثر من عشرين فنجاناً يحتسي في اليوم، يقعد أمام الحاسوب، يفتح ورق الشدة، يلعب لعبة الحظ، يجدها دائماً مغلقة، هكذا هو حظه، هو عاثر دائماً، يشكو الضجر، لا يعرف ماذا يفعل، هو زميلي في المكتب، في ديوان المديرية، هو يسجل الصادر وأنا أسجل الوارد، الصادر قليل، لا يكاد يسجل في اليوم سوى كتاب أو كتابين، أما الوارد فكثير، يحسدني على عملي، ولكن لا يريده لنفسه، لا يحلق ذقنه ولا يهتم بمنظره، قميصه هو نفسه، أسود، وإذا ما بدّله بدّله بقميص آخر بني قاتم، يبدو لي أنه لا يملك سوى هذين القميصين، يأتي متورم العينين، من سهر وأرق وقلق، شعره غير مسرح، كأنه لم يغسل وجهه، أسنانه صفراء.

هو متذمر لا تعجبه المديرية ولا العمل، ولا الحياة، يرى الفوضى تعم المديرية، بل العالم كله، كل شيء عبث، ولا جدوى، والسبب هو المدير، هذا ما يراه، المدير حاضر غائب، هو حاضر في مكتبه، ولكنه لا يدير شيئاً، كأنه لا يسمع ولا يرى، كأنه لا يدير أمور المديرية، هذا ما يعتقده هو.

دأبه الطعام، من قطع الحلوى إلى الصندويشات، كأنه لا يعرف غير المضغ والبلع، ودأبه الصور، كل يوم يعلق على جدران المكتب صوراً جديدة، لفنانين وفنانات، مشهورين وغير مشهورين، المهم أن يعلق دائماً صوراً جديدة.

ولكن تغير كل شيء، ذات يوم اتصل به بالهاتف مدير مكتب المدير العام، أخبره أن المدير العام كلفه بمهمة، وهي أن يحمل إليه كل يوم البريد الوارد خمس مرات، من الساعة الأولى بعد بداية الدوام حتى الساعة الأخيرة قبل نهاية الدوام، من الفجر إلى الغسق، كأنها

خمس الصلوات، التفتَ إليَّ معتذراً، قال: أتمنى لو أنك كُلّفتَ أنتَ بهذا الشرف، هكذا شاء القدر، هو الإلهام.

وبدأ التغير في حياته، أصبح يأتي كل يوم في قميص جديد، أخذ يختار الألوان الفاتحة، وغالباً ما كان يختار اللون الأبيض، يأتي حليق الذقن، مسرّح الشعر، كأنه كان يغتسل كل يوم قبل خروجه من البيت، وكأنه كان ينام نوماً هادئاً عميقاً طوال الليل، استقرت حاله، اطمأنت نفسه، زال عنه القلق والتوتر، اشترى ساعة ذات منبه، علقها على الجدار، قبل أن تدق معلنة موعد حمل البريد، يسرع إلى المغسلة في زاوية المكتب، يغسل يديه، يغسل وجهه، يمسح شعره، يمسح داخل أذنيه وخارجهما، يغسل فمه، ينظف أسنانه بفرشاة ومعجون فاخر، كل يوم يأتي بمنشفة جديدة مغسولة، ينشف بها وجهه، يسرح شعره، يرش عطراً على قميصه، يحمل الملف المملوء بالكتب الواردة، يمضي واثق الخطا، طيب النفس، مسروراً ويرجع راضياً مرتاحاً، يسلم الملف إلى مدير مكتب المدير العام، ولا يدخل عليه، في كثير من الحالات لا يرى حتى مدير المكتب، يضع الملف على طاولته، وهو مطمئن إلى أن الملفات ستصل إلى المدير العام.

اقتلع الصور من فوق الجدران، قال إنه يتوقع دخول المدير العام عليه، وضع بدلاً منها حكماً وأقوالاً تحض على الصدق والعمل والسعادة، أقلع عن تناول الحلويات والطعام في المكتب، أكد أنه في بعض الأيام لا يتناول حتى في البيت غير وجبة واحدة، ويظل طوال النهار من غير طعام، أكد أن صعود الدرج إلى مكتب المدير العام كل يوم خمس مرات قد عوّده على الرشاقة، ضمرت بطنه، خف وزنه، أصبح حقيقة أكثر رشاقة.

اطمأنت نفسه، أذهلني فيه هذا الرضا، أدهشني فيه هذا القبول، والهدوء والاستقرار، كلما رجع حدثني عن اطمئنانه وارتياحه إلى عمله، كلما رجع حدثني عن سروره بعمله، وبالمهمة التي يقوم بها، كم تمنى لو أنه كُلّفَ بهذه الواجبات من قبل، سألته ذات مرة: لقد مر على عملك هذا الجديد زمن طويل حتى أصبح قديماً، هل مللت؟

أجابني بهدوء: كيف أمل؟ على العكس كلما تقدم بي الزمن أشعر بمزيد من الرضا والاطمئنان، وسأظل مثابراً.

ذات يوم سألته: مضى عمر وأنت تدخل إلى غرفة مدير المكتب، هل دخلت يوماً إلى مكتب المدير العام، أو هل رأيته؟ نظر إلي مدهوشاً، وقال: ما فكرت قط في رؤيته، ولكنني متأكد من أنه لا بد من وجوده، يعمل ويدير الأمور، وأنا متأكد من وصول ملفاتي إليه، أما ترى كيف تجري الأمور في المديرية، كل شيء يسير وفق قانون وبنظام ولا خلل ولا خطأ، لولا وجوده لما سارت الأمور بهذا النظام، بل لولا وجوده لما كانت المديرية كلها.

ذات يوم غاب، على غير عادته، لم يغب من قبل يوماً، دهشت لغيابه، وإن كنت أعرف أن وجودنا في هذا المقر للمديرية مؤقت، وأنه لا بد من أن ينتقل كل عامل فيها ذات يوم إلى المقر الرئيسي، ولكن دائماً يأتي الانتقال مفاجئاً وغير متوقع، سألت عنه أحد الزملاء، فأجاب بأنه نُقِلَ بأمر من المدير العام إلى المقر الرئيسي للمديرية، سألته: أعرف أن للمديرية مقرين أساسيين، فإلى أي المقرين تتوقع أن يكون قد نُقِل؟ أجابني وهو يبتسم: الأرجح أنه نقل إلى مقرها في عدن.

جمجمة محطمة

يدخل عليهم المعتمد في غرفة المدرسين في الاستراحة بين حصتين، قصير، بدين، رأسه مثل كرة، يداه قصيرتان، عيناه صغيرتان، كم هو قميء، يكرهونه جداً، صوته حاد رفيع، يلقي عليهم التحية، ويتكلم:

ـ المستخدم واقع في مصيبة، أرجو منكم جميعاً أن تساعدوه، وأنتم ما زلتم في أول الشهر، أمس فقط قبضتم رواتبكم، بائس وفقير ومنكوب، ولده الوحيد نزل إلى الشارع، استعار من صديقه دراجته، وفوراً صدمته شاحنة، داست الدراجة وحطمتها، والولد في المستشفى، جمجمته مكسورة، والسائق هرب بالشاحنة، دهش الناس، لم يلتقط أحد رقم الشاحنة.

وتنهال عليه التعليقات:

ـ هل نحن أغبياء إلى هذه الدرجة حتى نصدق هذه الحكاية، كل يوم يأتينا أحد المتسولين بقصة.

ـ ليأت بقصة معقولة، دراجة وشاحنة وجمجمة؟

ـ على الفقير أن يضع ولده إلى جانبه في البيت، لماذا يتركه ينزل إلى الشارع؟ ولماذا يستعير دراجة؟

ـ كان عليه منذ أول يوم دخل فيه إلى الوظيفة، وهو المستخدم، أن يفتتح لنفسه حساباً في المصرف، ويودع فيه خمسة بالمئة فقط من راتبه، لو فعل هذا أول يوم تسلّم فيه العمل قبل عشرين سنة، لوجد في رصيده مبلغاً كافياً، يستطيع أن يستعين به على المصائب، على الإنسان أن يحسب لكل شيء حسابه، الكوارث والمصائب دائماً متوقعة.

ـ ليحمل ولده إلى مشفى حكومي، المعالجة فيه مجانية، ليس من الضروري أن يحمله إلى مشفى خاص.

ـ لا شك أن له أقارب وإخوة، هم أولى به منا، ليتبرعوا له.

ـ أنا أنصح أن نذهب إلى السوق التجارية، نحن بأنفسنا، ونجمع له من زكاة التجار الأغنياء.

ـ فكرة جيدة، غداً يوم الجمعة، ليرسل من يجمع له التبرعات من المصلين عقب الصلاة.

ـ ليلجأ إلى نقابة المستخدمين لتقدم له العون.

ـ كان على سائق الشاحنة حمل الولد إلى المشفى.

ـ الغريب في الأمر أن أحداً من الناس في الشارع لم يلتقط رقم الشاحنة، قناعتي القصة ملفقة.

ـ البلدية تتحمل المسؤولية، يجب منع الدراجات.

ـ من حق الأولاد ركوب الدراجات، لكن على البلدية تخصيص ساحات خاصة بالدراجات، والأرصفة يجب لأن تكون عريضة، وفي وسطها ممر محدد بالأسود خاص براكبي الدراجات، أنا رأيت بعيني مثل هذا في استوكهولم.

ـ نحن هنا في المدرسة أكثر من عشرين، لو تبرع كل واحد منا بنصف راتبه، لما كفاه ثمن الدواء وأجرة العمليات والنوم في المستشفى، لا أحد منا بقادر على التبرع ولو بخمسة بالمئة من راتبه.

في مطلع الشهر التالي يتقاطر المعلمون على غرفة المعتمد لقبض رواتبهم، وإذا بهم يجدون لا فتة معلقة على الجدار وراءه وقد كتب عليها بخط أحمر عريض:

"سيتم اقتطاع عشرة بالمئة من راتب كل معلم مساهمة منه في تمويل تقويم سنوي ستطبعه الوزارة في مطلع السنة الجديدة وتوزعه على المعلمين".

المعتمد يقول لهم:

ـ القرار هنا على الطاولة أمامكم، إذا أردتم خذوا اقرؤوه، وتأكدوا بأنفسكم.

يدخل المعلم منهم إلى غرفة المعتمد، يقرأ اللافتة، يقبض راتبه بصمت، ويخرج من غير أن ينبس ببنت شفة، بل من غير أن يلقي حتى نظرة على القرار الوزاري المطروح على الطاولة.

*

في الاستراحة بين الحصتين يدخل عليهم المدير، قصير جداً، أقصر من المعتمد، بدين جداً، أكثر بدانة من المعتمد، يداه قصيرتان، قميء جداً، كأنه نسخة مشوهة عن المعتمد، صوته حاد ناعم رفيع. يقول لهم:

ـ اعذروني، أنا معكم، هو قرار وزاري، رأيتم توقيع السيد الوزير، وختم الوزارة، لا أستطيع مخالفته.

يبح صوته، ينقطع، يسعل، يسترد أنفاسه، يتكلم:

ـ هو قرار جائر،إذا شئتم رفعنا عريضة احتجاج.

ينظر بعضهم إلى بعض، ويعلقون:

ـ هو قرار حكيم.

ـ قرار عادل.

ـ نحن مستعدون للمساهمة بنصف الراتب.

ـ لا، لا، لن يعترض أحد، أنا أتكلم باسمي واسم كل المعلمين، لا أحد منا يعترض.

ـ التقويم ضروري ومفيد.

ـ من الجميل أن يحمل التقويم اسم: "المعلمون".

ـ من الضروري جداً في كل عام أن يصدر تقويم سنوي جديد، يوزع على المعلمين، يساهم في تمويله كل المعلمين، ليدركوا أهمية الزمن، الزمن في هذا العصر المتفجر هو قيمة الحياة، ولا بد من وجود تقويم في بيت كل معلم، بل على كل معلم أن يشتري أكثر من نسخة من هذا التقويم، ونحن معاشر المعلمين نطالب بشدة أن نصدر مثل هذا التقويم، كي نساهم في بناء التاريخ وصنع الحضارة وصنع المستقبل وصنع كل ما جديد، نحن في عصر الصناعة والتقدم.

يخرج المدير، ينظر المعلمون بعضهم إلى بعضهم الآخر، ولا شيء سوى الصمت.

*

بعد حين، ربما شهر، أو ربما دهر، يتكلم أحد المعلمين يقول لزملائه:

ـ أنا أعرف، المدير صاغ القرار، وطبعه في غرفته، وقلّد توقيع الوزير، ثم وضع ختم الإدارة.

يدهش المعلمون، يقول أحدهم:

ـ هذا الأمر لا يصدق، هل يعقل أن يجرؤ المدير على تقليد توقيع الوزير؟؟

ـ نعم، يجرؤ، أنا دخلت عليه فجأة، ورأيته يضع ختمه على القرار، هل رأى أحدكم القرار؟؟

ويتكلم المعلمون:

ـ نعم، كلنا رأيناه على الطاولة؟

ـ وهل قرأه أحد منكم؟

يطول الصمت، ولكن أحد المعلمين يسأل:

ـ ولماذا لم تتكلم في حينها؟

ـ ماذا كنتم ستفعلون لو أني تكلمت؟؟

العرض مستمر

الحافلة تسير، متهادية رخية، اهتزازات ناعمة مثل وشوشات، والأضواء الصغيرة الخافتة جداً كأنها عيون يداعبها الوسن، والليل مطبق، ليس ثمة في الخارج غير الظلام الدامس، يوحي بالفراغ، يعطيك الشعور بالراحة والأمان، كأنك في حلم، أو كأنك نائم، لا تحس بشيء، لا ترى أي شيء، لا تفكر بشيء، كأنك في العدم، ترتاح، ويتهادى صوت فيروز ناعماً رخياً من مسجل خافت، كأنها تهمس لك، تود لو تنام، ولكنك لا تريد أن تنام، كي تظل ناعماً بهذا الجو الحالم، والحافلة ما تزال تتهادى، ويعلو من عمق الحافلة صوت أجش غليظ، كأنه بركان ينفجر، وهو يصيح: " مللنا، ضع لنا أي فيلم حتى نتسلى "، وينهض المعاون، ويصرخ الضوء في شاشة العرض، بصوت باهر، ثم يبدأ في عرض فيلم، لا تدري أين تنظر ولا تعرف ماذا تسمع، تغمض عينيك، ولكن الضوء يقدح، تسد أذنيك بإصبعيك، ولا جدوى، فالأصوات تتسرب إلى أعماق الشرايين، ولا تستطيع إلا أن ترى الفيلم، شخصيات تتحرك، تصيح، تتغير المشاهد، تتغير الأشكال، مثل ثعابين تتلوى، ولا تدرك من اللغط شيئاً، ولا تفهم من الحركة معنى، ولا تدرك ما يجري، ويستمر العرض، ولا أحد يعترض أو يحتج، بعضهم يغط في النوم، وبعضهم يتابع العرض، وتغيب فيروز، ويلغى الهدوء، ويتمزق السكون الناعم، ليحضر الصخب والضجيج، ويلتفت المسافر إلى جواري ليقول لي: " هذا الفيلم رأيته عشرين مرة، أنا كل أسبوع أسافر، كثيراً ما أراه في الذهاب والإياب، حفظت حركات الممثلين، حفظت صراخهم وصخبهم، ولكن صدّقني، حتى الآن لم أفهم منه أي شيء، أي فيلم هذا؟"، ويمر بجواري معاون السائق، أقول له متذمراً:" ما هذا الفيلم؟"، يجيبني ببرود:" كل الأفلام عندنا مثل هذا الفيلم"، ويقول له جاري:" هل يمكن العودة إلى فيروز؟"، يرد المعاون، وهو يمضي :

" هذه هي رغبة الركاب"، يعلق جاري، وكان المعاون قد مضى إلى عمق الحافلة:" ولكنها رغبة واحد، لا رغبة الجميع؟"، ويلتفت إلينا راكب في المقعد الذي هو أمامنا مباشرة ليقول لنا:" إذا ما أعجبكم هذا الفيلم غمّضوا عيونكم وناموا، نحن نريد رؤية الفيلم"، ماذا يمكنني أن أقول له؟ الصمت هو خير، يمنحني جاري بعض العزاء، فإلى جواري راكب يتفق معي في الرأي، يمكنني أن أحدثه، أقول له هامساً: "المعاون لا يتحمل المسؤولية، ولا السائق، يتحملها المنتج والمخرج، من المؤسف إضاعة المال والوقت والجهد، وهدر مواهب الممثلين"، يضيف الراكب إلى جواري، وهو يهمس مثلي، كأنه لا يريد أن يقطع المتعة على الراكب الذي أمامنا، يقول لي:" هذا هو المطلوب: تسطيح عقول الناس، وتشويه أذواقهم، وجعلهم يتقبّلون كل شيء"، وأضيف هامساً، كأنني أخشى أن يسمعني الراكب الذي هو أمامنا:" بل جعلهم يعجبون بكل ما هو سخيف، حتى لا يتمكنوا من تمييز السيئ من الجيد في الفن"، ويضيف جاري:" إذا ما عادوا يستطيعون تمييز السيئ من الجيد في الفن، أصبحوا لا يستطيعون التمييز في كل شيء، وعلى ذلك فقس، وحدث ولا حرج"، ويصيح صوت من وراء، في عمق الحافلة:" ارفع لنا الصوت، نحن هنا لا نسمع، نريد أن نفهم"، ويعلو صوت الزعيق والصراخ والضجيج في الفيلم، والعرض مستمر. يقول لي الراكب الذي إلى جواري:" لولا أننا في الليل، وفي قلب الصحراء، لطلبت من السائق النزول هنا"، أقول له هامساً:" لن يسمح لك بالنزول، لا بد من أن تكمل الرحلة كلها، ولا بد من أن ترى الفيلم كله". يقول لي:"لا بد من البحث عن حل!"، أجيبه هامساً:" يبدو لا حل سوى النوم"، وأعقد يدي على صدري، أغمض عيني، ويمر إلى جواري طفل، يمضي في الممر، بين صفي المقاعد، يميل على السائق، يكلمه، ثم يعود، وقبل أن يصل إلى مقعده، يتوقف عرض الفيلم، ينطفئ الضوء الباهر في شاشة العرض، يعود الهدوء، ويترقرق همس فيروز، مثل نسيم ناعم. ويلتفت إليَّ الراكب الذي هو في المقعد أمامي، ليقول مستنكراً:" هل أعجبك هذا؟"، ثم يدفع بمقعده

إلى الوراء، ويتمدد فيه، وقد ملأ الفراغ كله بين مقعده ومقعدي، وإذا بمسند مقعده يسد عليّ أنفاسي، وأتقبل الأمر بصمت، وما هي إلا دقائق حتى يجلجل شخير حاد، يعلو أمامي مثل آلة صدئة تدور. يهمس لي الراكب إلى جواري:" هذا أقل سوءاً من صخب الفيلم"، أسأله:" ولماذا علينا أن نتوقع دائماً الأسوأ؟ لماذا لا نبحث عن الأجمل". وأتجه بأنظاري نحو الأفق، فأرى طلائع الفجر، والنور الأبيض ينثال من خلال الغيوم، ليرسم ألواناً زاهية متألقة، تؤكد ولادة يوم جديد، وفيروز تشدو: " طلعت يا ما حلى نورها"، أشعر بالسرور، أفتح عيني، فإذا الفيلم ما يزال مستمراً، والصخب عال، وألتفت إلى جاري، وإذا هو يتابع الفيلم بعينين مفتوحتين، وعلى الزجاج إلى جواره تنعكس صورة شاشة العرض، والفيلم الصاخب، والعتمة ما تزال في الخارج، أهمس لجاري: "يبدو أنني غفوت"، يجيبني:" أنا لا أستطيع النوم، ولا الإغفاء، ولاشيء أمامي سوى شاشة العرض، يجب أن أرى وأن اسمع".

هو....وأخوه

هو صديق عزيز، كان في نحو الخمسين حين تعرفت إليه، وكنت في الثلاثين، خرج من غرفة الولادة والبسمة تعلو وجهه، أسرعت إليه، قلت له:" شكراً لك، أنت أنقذت حياة زوجتي"، ربت على كتفي، ثم سألني عن عملي، وحين أجبته، انفعل قليلاً، ولكنه ضبط انفعاله، لاحظت عليه ذلك، ثم دعاني إلى زيارته في عيادته، وفور دخولي عليه في اليوم التالي قال لي:" اعذرني، لا بد لي أن أعتب عليك، كيف تقول إني أنقذت حياة زوجتك، وأنت أستاذ اللغة العربية؟ لو قال مثل هذا غيرك لسامحته"، هممت بالكلام، ولكنه استرسل قائلاً:" أرجوك، لا تقل هذا، أنا لا يمكنني أن أنقذ حياة أحد، الحياة ملك خالقها، أنا فقط وجّهت الممرضات، وهن ساعدنها على ولادة يسيرة". ومن هنا نشأت بيننا صداقة عميقة، فكنت أزوره مرة أو مرتين في الشهر، ولكن كان لا بد بعد ذلك من زيارته ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع، إذ ما مرت بضعة أشهر على ولادة ابني وعلى تعرف أحدنا على الآخر حتى وجدت كل شيء قد تغير التغير كله، قصدت عيادته ذات مساء كعادتي، فلم أجد اللوحة على مدخل البناء، ولا على باب العيادة، كدت أرجع، ولكنني دخلت، سألته: "هل بعت العيادة؟"، ضحك، ثم أجابني:"أنا ورثتها عن أبي، ولكن ما كنت أحس أنها ملكي، اليوم هي ملكي بالفعل، أحس أني اليوم اشتريتها حقيقة"، دهشت، الرفوف ملأى بالمعاجم وكتب اللغة وعلم النفس والاجتماع والشريعة والفقه والأديان، لقد أقلع عن ممارسة المهنة، ولم يبلغ الستين، قال:" لا أريد أن يقال، كما قلت لي أنت ذات مرة، إني أنقذ الأرواح"، ثم أضاف ممازحاً:" أنت السبب في تغيير كل شيء في حياتي"، قلت له: "هم يقولون ذلك بعفوية، ولا يقصدون.."، قاطعني:" لا أريد أن يقال ذلك على الإطلاق، يجب أن نتقن استخدام اللغة بدقة، ولإتقان استخدامها لابد من معرفة أسرارها، ولمعرفة أسرارها لا بد

من معرفة التاريخ والأديان واللغات، عندما نعرف بدقة نتكلم بدقة".
وامتدت الأيام، وإذا هو عالم في اللغة العربية والسريانية والعبرية والأكادية والكنعانية، بالإضافة إلى إتقانه من قبل الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وفي أيامه الأخيرة تعلم الكردية والأرمنية، وقد قرأ في الأديان والتاريخ والجغرافية والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، ولكن تلك الصداقة لم تطل، فقد توفي بعد بضع سنوات، قبل أن يبلغ ابني السادسة من عمره، ست سنوات فقط بدلت في حياتي كثيراً، كما بدلت في حياته، وقد مرت مر السحاب، كأنها طرفة عين، ولكنها كانت عميقة جداً، ليست صداقته معي فقط، بل مع كل الذين كانوا يقصدون عيادته، بل مجمعه العلمي، كان يستمع إلينا، يحاورنا، يسألنا، وكان يحدثنا عن الأيام التي أمضاها قبل الوصول إلى أرض الوطن، كان يحدثنا عنها، ويعيد الحديث، ويفيض فيه مسترسلاً، تسعة أيام أمضاها، أحس فيها كأنه يعوم في كرة مغلقة مملوءة بالماء، لم يكن الحصول على تذكرة السفر سهلاً، فالزحام شديد، الشوق إلى تراب الآباء والأجداد يجرفه، الحنين إلى أرض الوطن يطغى عليه، مع أنه كان يعيش في عالم أثيري حالم، لا يتاح لأحد، وحين هبط على الأرض، حط فوق تراب الوطن، بكى، ذرف الدموع، صرخ، أمه هي أول من التقى، ضمته إلى صدرها، أحس بدفئها وحنانها، أحس كأنه لا يريد أن يغادر حضنها وهي تضمه، ثم ضمه إليه أبوه، قبّله، تحلق حوله الأعمام والأخوال والعمات والخالات، كلهم قالوا إنه لا يختلف عن أبيه في شيء، أبوه نفسه كان من قبل قد قام بهذه الرحلة، ووصل إلى الوطن بعد مثل هذه المعاناة، وكذلك جده من قبل، قدر الأسرة الذي لا مفر منه هو الغربة والسفر والارتحال، ثم العودة إلى الوطن، للموت فيه، هكذا أكد الجميع، وقد توقعوا أنه ما جاء إلا ليموت في أرض الوطن، لكن أهم من التقاه هو أخوه، كان يود ألا يخلق، كان يتمنى هلاكه، كان يريد أن يظل هو الوحيد ليكون المالك لكل شيء والوارث لكل شيء، كان هذا الأخ يحسب نفسه الوحيد على وجه الأرض كلها، كان يظن نفسه شعلة النار المتقدة، وأن كل شيء له،

وأن الناس جميعاً لـه خدم وعبيد، ولذلك كان وجود هذا الأخ مشكلة بالنسبة إليه، كما كان هو نفسه مشكلة أيضاً بالنسبة إلى أخيه، هكذا كان يحدثنا بحميمية وصدق، ويستعيد التفاصيل بدقة، ويعيد الحديث غير مرة، ليس أمامي فقط، بل أمام صحبه والأصدقاء، فقد أصبحت عيادته، بعد ترك المستشفى، مجمعاً للأدباء والشعراء وعلماء اللغة والدين والقانون والفقه والشريعة، لم تعد العيادة عيادة، أصبحت مقراً لندوات تعقد في الصباح والمساء، بصورة عفوية ومن غير موعد، لتثار فيها قضايا الموت الحياة والسعادة والشقاء وتبحث فيها قضايا مختلفة في اللغة والدين والتاريخ وعلم اللغات، كثير من طلاب العلم يقصدون عيادته، يزودهم بالمصادر والمراجع، ويناقشهم مناقشة العالم المختص، دعوتُه غير مرة إلى تدوين أفكاره ونشرها، لم تعجبه الفكرة، قال: "يكفيني الحوار، لقاء الإنسان بالإنسان هو الأهم، في هذا اللقاء نحسن التفكير، نتقن التعبير، نسمع ما هو مختلف، هذا هو الأهم"، كان إيمانه بالكلمة لا يتزعزع، هي عنده كل شيء، ليست صوتاً، إنما هي علم ومعرفة وتاريخ وحضارة ووعي، هي الإنسان، فجعني رحيله المبكر، وفجعني أكثر أخوه، فور موته استولى على العيادة، باع الكتب بثمن بخس، كان يكرهه من قبل وهو طبيب، علمت أنه كان ينشر عنه شائعات شائنة، يتهمه بالجهل، وتزوير الشهادة، وإسقاط الأجنة، وهو الذي أقسم لي أنه ما أجرى قط عملية إجهاض، وأكد لي لو أنه فعل لكان جنى أموالاً طائلة، لقد ترك المهنة في أوج شهرته، تركها بعد أن قال عنه الناس: " هو الطبيب الذي ما ماتت بين يديه امرأة، ولا مات بين يديه وليد"، حين علم بهذا ترك العمل مباشرة، وازداد كره أخيه له عندما حول عيادته إلى ملتقى للأصدقاء، حتى إنه اتهمه بتشكيل اتجاه معارض لسياسة الدولة، والسعي إلى تغيير نظام الحكم، ثم اتهمه بالشذوذ، لقد تحولت العيادة من بعده فوراً بتوجيه من أخيه إلى مخزن شعبي لبيع العقود والأساور والأمشاط والمرايا وشفرات الحلاقة والأشياء اليومية الصغيرة وكل ما هو بخس الثمن، ومن أسوأ الأصناف وأردأ الأنواع، كنت أتمنى التعرف إلى

أخيه أو لقائه، وقد صارحته بذلك في حياته، ولكنه نصح لي ألا ألقاه، أكد لي أنني سأقع في شَرَكه إذا ما قابلته، لأنه قادر على الغواية، فهو قوي التأثير، لا بالحجة أو المنطق، إنما بالمظهر البراق، والأسلوب المخادع، وبطرق لا يعرفها إلا الشيطان وحده، كنت أعرف أنه كان يمر به كل يوم في عيادته، ولكن ما كنت أعرف في أي وقت يمر، كلما جئته قال لي:" الآن خرج"، أو قال:" أمس، بعد خروجك، فوراً دخل عليّ"، كان دائماً يروي لي أن أخاه كان ينصح له أن يحول العيادة إلى محل لبيع الأطعمة أو الألبسة أو الأحذية، فهو في وسط المدينة، بل في وسط السوق، قال له ساخراً، كما روى لي:" ابن لنفسك بيتاً في الجبل، واستقبل هناك أصحابك، موضعك ليس هنا في قلب السوق"، في آخر زيارة قال لي:"سأحول العيادة إلى محل لطبع الأقراص الليزرية"، دهشت، نظرت إليه غير مصدق، أضاف:" سأطبع عليها الكتب والموسوعات وأحدث المؤلفات، وسأظل أحتفظ بهذه الغرفة للقاء الأصدقاء"، كنت أتمنى أن أرى أخاه ذات مرة وهو صاعد إليه على الدرج، أو أراه وهو يهبط عليه لدى مغادرته، لا أعرف: هل كان يخرج له من تحت الأرض، أو هل كان يشق الجدار ويخرج؟ لم يكن أخوه بحاجة إليه، ما كان يريد منه مالاً، كان في كل زيارة يحاول إقناعه بالعودة إلى العمل في المستشفى، وعندما كان يعمل من قبل في المستشفى، أكد لي أنه كان يقول له:" اترك النساء يلدن كما كانت الجدات تلد، من غير إشراف ولا رعاية ولا علاج"، وأحياناً كان يغريه باستبدال مولود بمولود، وربما حرضه على قتل مولود، أكد لي أنه ما كان يعرف كيف يظهر له، أحياناً يأتيه وهو في غرفة الولادة، ولا يعرف كيف دخل عليه، لا يعرف سبباً لهذا الحقد أو هذه الكراهية، ما كان يخشاه، كان متأكداً أن أخاه لا يستطيع أن يقنعه بشيء، كما لا يستطيع هو أيضاً أن يفعل، كل منهما كان يعلم أنه لا يمكن نفي الآخر، ولا إلغاء وجوده، ولا يمكن أيضاً تحقيق السيطرة الكلية لأحدهما، وتسألني زوجتي: "وكيف مات؟"، الحقيقة لا أعرف بالضبط كيف كان موته، ولا أحد يعرف، حارس المقبرة روى أنه رآه

يدخل المقبرة عصراً، وهو يحمل باقة ورد، دلّه هو بنفسه على قبر أبيه، سار معه إلى حيث القبر، ثم تركه ورجع، ثم كان المساء، وحلت العتمة، ولم يغادر المقبرة، فتوجه حارس المقبرة إلى قبر أبيه، فرآه مضطجعاً بهدوء فوق التراب إلى جوار القبر، أحدّث زوجتي عن ذلك، فتقول:"مسكين، لم يعش في الوطن سوى ست سنوات"، فأقول لها: "ولكنها تعدل ستين عاماً"، ثم بعد يومين حدثتها عن أخيه، فقد علمت أنه أحد أكبر عشرة رجال في البلد، وممن يتحكّمون في اقتصاده، وربما في الدنيا كلّها، وهو لا يملك شيئاً باسمه، ولا رصيد له في المصرف، ولكن هو شريك لكثير من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، وله أسهم كبيرة في كل الفنادق والمطاعم والبارات والملاهي، بل في كل سوق ومحل، سألتني عن عمره، قلت لها هو أكبر من أخيه، أنا على يقين من أنه جاء إلى هذا الكون قبله، وقد علمت أنه يتمتع بصحة جيدة، ما يزال كالعفريت، علقت:" هذا مثل الشيطان لا يموت"، قلت لها: "وأخوه لا يموت، اليوم اتصلت بي زوجته، ورجتني أن آخذها إلى أي طبيب نسائي، فهي حامل في الشهر الثالث، وتريد أن يعرف ذلك الناس جميعاً"، قالت زوجتي:"لقد أحسنت عندما اقترحت تسمية ولدنا باسمه، سأعتني بتربية ولدنا ليكون الطبيب النسائي الأول مثله، في الحقيقة هو الذي أنقذ حياتي وحياته"، أحس بالاستياء مما قالت، مات ولم يستطع تعليم الناس كيف يستخدمون اللغة، هذه الجملة هي التي غيرت حياته، ما كان يريد أن يسمعها، أقول لها:"نعم، أرجو أن يكون ولدنا مثله"، وأضيف في نفسي:"ولكن ليس طبيباً بالضرورة".

مدينة الثلج

القطار يسير، سحج عجلاته الحديدية على القضيبين الحديديين المتوازيين إيقاع رتيب هادئ، وأنا في مؤخرة العربة الأخيرة، وتمتد أمامي المقاعد في خطين متوازيين، مقاعد خالية إلا من راكبين، انفرد كل منهما بمقعد، كأن القطار كله لهما وحدهما، يجيء المفتش مع بدء الرحلة، ينظر في البطاقات، ثم يمضي ولا يعود، الضوء أبيض شاحب، الحركة هادئة رتيبة، العتمة في الخارج مطبقة، لا ترى على الزجاج إلا انعكاس الصورة في الداخل، المقاعد الخالية والأضواء البيضاء والهدوء الصامت صورة مكرورة كأنها هي نفسها في الخارج، وهي نفسها في الداخل، البرودة الناعمة تنثال من فوق، تملأ العربة، كأنك تغوص في كأس حليب مجمد، امتداد العربة مع الصفين المتوازيين من المقاعد هو مثل امتداد الخطين الحديديين، لا يكاد ينتهي، أرى الصفين يمتدان حتى باب العربة الزجاجي، وهو يشف عن العربة التالية، والمقاعد في العربة التالية تمتد أمامي في صفين متوازيين، وتمتد المقاعد وتمتد وتمتد، كأنها لا تلتقي، بل هي حقاً لا تلتقي، وأنا أرقبها، أتابع امتدادها، والبرودة والصمت والهدوء والاهتزاز الناعم للقطار تتعانق كلها وتتجاوب وتتناغم، أرى المقاعد على الصفين تنتهي هناك، حيث تلتقي في مدينة هادئة، الشوارع لا غبار فيها ولا دخان ولا سخام، السيارات كلها تسير بوقود صاف أنيق، الجسور تعلو، والأنفاق تمتد، لا إشارت للمرور ولا مطبات، والسيارات تسبح مثل سمكات ملونة في حوض ماء نقي، الإيقاع هادئ، على الأرصفة يسير الناس، هم شفافون مثل قناديل البحر، الحركة ناعسة، مثل شريط يعرض ببطء، شرطي المرور يحيي السائقين والمشاة، وهو يشير بعصاه، مثل قائد فرقة موسيقية تعزف لحناً هادئاً، لا بوق لسيارة ولا سحج لعجلة ولا نقيق لضفدع ولا نأمة لسحلية، هل هو الخواء؟ بل ثمة أناس كثير، وأمطار غزيرة تنثال كالشلال، والمياه تتدفق، ولكن لا رامات في الشوارع، كيف تمضي

السيول هكذا في مجاريها سريعة كالخيال؟ النوافذ مفتوحة وقد زينت بالزهور، والشرفات مزروعة بالأشجار، مثل حدائق بابل المعلقة، حمامات بيض ترف في الجواء، تحط على الأسطحة، تهبط بأمان واطمئنان إلى الساحات، الناس يبيعون ويشرون بالحلال، لا غش ولا مساومة ولا خداع، الخضار والفواكه كأنما نمت معلقة في الهواء، لا تربة ولا غبار، أراجع هذا الموظف، ينهض لاستقبالي، يرحب بي، يشكر لي زيارتي له، ويضع التوقيع والخاتم، يصافحني مودعاً، لا طوابع ولا أوراق أخرى ولا صورة ولا وثيقة ولا صعود على أدراج ولا هبوط، قلت له فصدق كل ما قلت، لا ضرورة للوثائق والأوراق، كل شيء هنا متوافر من غير أن تفكر فيه، كل ما تحلم به يأتيك في الحال، مثل فراشات تسبح في النور، أي مدينة هذه؟ أطل من نافذة غرفتي، وأنا لا أعرف كيف صرت فيها، لأرى حديقة قصري، غدا للتو قصري، وهذا محامي الخاص يحضر لي كتاب التملك لأوقع عليه، أكتب اسمي فقط، بحروف رخية لينة، نسيت هنا توقيعي القديم، توقيعي المعقد الملتف المتشابك الحروف والرموز المتداخل الخطوط والإشارات، ولكن ثمة برد شديد، لم هذا البرد؟ الآن اكتشفت، مللت، مللت، أنا هنا غريب، هذه ليست مدينتي، أشعر بالضيق، أنا هنا مجمد لا أتحرك، اشتقت إلى الزحام، إلى ضجيج الشارع، إلى صخب الرصيف، اشتقت إلى عوادم السيارات والسخام، كل ما أريده يتحقق هنا من غير شقاء، ما عدت أجد متعة في الحصول على الأشياء، لا بد من أن أدور في الأسواق، أبحث في المحلات عن فرشاة أسنان أو شفرة حلاقة، كل شيء هنا متوافر مبذول، متحقق بالمجان، لم أتعب، لم أشعر بالعناء، أريد أن أتحرك، ما لي أحس هكذا بالتقلص، بالجمود، أحس بالبرد الشديد، أود أن أزحم هذا بالأكتاف، أن أدوس على قدم ذاك، أن أجتاز الشارع وأنا أخشى سيارة مندفعة، ما بالي لا أكاد أتحرك، سأتحرك، أمد ساقي، أشدها، أدفعها، وتهتز بي العربة، ترجني رجاً، يتوقف القطار، ويقتحم العربة بضعة رجال، يهرولون بين الصفوف راكضين، ومن غير أن أسألهم يقول لي أحدهم:

ـ أولاد أشقياء قذفوا العربات الأولى بحجارة وحطموا زجاج بعض النوافذ، لا بد أن نمسك بهم.

أرتعش، ينتفض جسمي كله، الهواء البارد في عربة القطار جعلني أتجمد.

الأولاد الأشقياء، أعادوني إلى الواقع، أعادوني إلى مدينتي المزدحمة.

هو وحده دائماً

اللغط والضجيج والصخب وسحائب الدخان وفرقعة النرد وما قد يتخلله من سباب وشتائم أو أيمان مغلظة هي الإيقاعات المحببة مساء يوم الجمعة، نحس بالفراغ، نشتاق إلى صخب المعمل وضجيجه، يشتاق بعضنا إلى بعضنا الآخر، مع أننا لا نكاد نبلغ نهاية الأسبوع حتى نضجر ونمل، ونود لو جاء يوم العطلة، وها هو ذا يجيء، وسرعان ما نلجأ إلى مقهى العمال ليلتقي فيه بعضنا ببعض.

هنا لا ندفع سوى خمس ليرات، سواء للقهوة أو الشاي أو الزهورات أو الكازوز، حتى النارجيلة طالبنا أن تكون بخمس ليرات، ثم رضينا أن تكون بعشرين، ونحن هنا نأتي متى نشاء ونخرج متى نشاء، لا عمل ولا مدير ولا رئيس وردية ولا مراقب فني.

صوت النادل عبدو وحده المميز في ذلك الإيقاع، وهو ينادي: نارة، واحد زهورات، ثلاثة شاي سكر وسط، أربعة قهوة سادة. صوته هو الذي يضبط الإيقاع، يعلو فوقه، يضيع وسطه، يندغم فيه، نحس له ببهجة لا نعرف سرها، أحياناً يتسرب إلى الإيقاع صوت بائع الصحف أو الجوارب أو أوراق النصيب، أو صوت متسولة عجوز. هنا ننسى كل شيء، البيت والزوجة والأولاد، هنا نجد أنفسنا، هنا ننسى أنفسنا.

ألتفت أرى صورتنا أنا وأصحابي منعكسة على الزجاج وقد غطاه غبش الأنفاس، أرى المقهى كله، أرى سحائب الدخان، وفي الخارج يسقط المطر رذاذاً، وأناس على الرصيف يروحون ويجيئون، وعلى الطرف الآخر مكتب المراسلات، آلاف الطرود والرسائل تروح وتجيء كل يوم، هذا يرسل إلى ذاك وذاك يرسل إلى هذا، حركة دائبة تدور. طوال حياتي لم أرسل طرداً إلى أحد، طوال حياتي لم يرسل إليَ أحد أي طرد.

أنظر في وجوه أصحابي، ألتفت إلى عبدو النادل وهو يحمل كؤوس الشاي، تمتد عيناي إلى طاولة صاحب المقهى، هو متعهد

المقهى، وليس صاحبه، ولكنه يقعد وراء مكتبه كالأمير، نارجيلة كالعروس تنتصب إلى جواره، مذهبة، مزينة، الجمرات في رأسها تتقد، وراءه حوض أسماك، وناعورة صغيرة في داخلها تدور، أسماك حمراء وسوداء، أسماك كبيرة وصغيرة، والماء يبدو كالعكر، أحس بمزاجي قد تعكر، لا أعرف لماذا؟.

ويفتح الباب ويدخل.

عجوز متهدم، ناحل جداً، شاحب جداً، يتأبط جريدة، محنيَّ الظهر جداً، يكاد يتقوس، كأنه خارج من قبر، حقيقة هو خارج من قبر، فقد سمعنا منذ عام أنه مات، كم هو دميم؟ يا إلهي، كيف صار إلى هذه الحالة؟ يرمي فضاء المقهى بنظرة فيها شيء من اشمئزاز قديم، يتريث قليلاً أمام الباب، ثم يدخل واهن العزم، كليل الخطا، يميل كأنه يعرج على يسراه، على الفور يتجه نحونا، لماذا اختارنا نحن بالذات؟.

نظرت إلى هشام، لا شك أنه سيطرده، لن يسمح له بالجلوس إلى مائدتنا، أكرم سينهض على الفور، سيغادر المقهى، ميشيل سوف يطلب منه الجلوس إلى طاولة أخرى، محمود سيوليه ظهره إذا ما قعد إلى جواره، وقد يلكزه بكتفه ليقع على الأرض، أنا سأنفث دخان سيكارتي تجاهه ليختنق، سنتفق جميعاً، ونطلب من النقابة عدم السماح له بارتياد مقهى العمال، ما الذي جاء به إلى مقهانا؟

قلت لهم مستنكراً ومحرِّضاً:

ـ هذا مقهى العمال، وليس مقهى المدير العام.

وجاءتني الأصوات تهدِّئني وتقنعني:

ـ هو الآن مجرد إنسان، وليس المدير العام.

ـ لا نستطيع منعه، هو في الأصل عامل ويحمل بطاقة العضوية، ومن حقه ارتياد مقهى العمال.

ـ لا يمكن أن نطلب منه القعود وحده إلى طاولة.

ـ حقيقة هو آذانا جميعاً، يوم كان المدير، ولكنه اليوم إنسان.

ـ عفا الله عما مضى.

ـ المسامح كريم.

ـ هو اليوم بحاجة إلينا.

ـ يجب أن نرحم شيخوخته.

ونهضنا جميعاً، رحبنا به، حييناه، أفردنا له مكاناً بيننا، خصصناه بموقع مميز، أطفأنا جميعاً سجائرنا، نعرفه لا يحب التدخين، قدمنا له كأس زهورات، تبارى كل واحد منا في دفع الثمن، ولكن متعهد المقهى تقدم منا، رحب به، ثم قال:

ـ مشروب هذه الطاولة كله هذه الليلة ضيافة مني، على شرف المدير، حلت علينا البركة بحضوره، أهلاً وسهلاً به، وبكم، كل يوم جمعة ستكون هذه الطاولة محجوزة له، ولمن يحب.

يخيم الصمت، أرفع كأس الشاي، أرى خلال الشاي الكثيف المدير العام، أرى الصحب، أرى المقهى كله، كأنه حوض أسماك، آخذ رشفة، أبتلعها، أكاد أختنق، أسعل، أقحّ، ويتطاير الشاي من فمي رذاذاً.

ويتكلم المدير العام بصوته الهادئ كأنه خارج من قبر:

ـ إذا تكررت هذه الغصة فهي دليل مرض في القلب، عليك مراجعة طبيب مختص، ولا بد من التصوير والتخطيط والتحليل، الحق نفسك اليوم قبل الغد، ابن أخي شاب عمره أقل من ثلاثين سنة، كان يغص دائماً، أخي أمي وجاهل، ما تدارك ابنه، فجأة مات، أنا أجري الفحوص والتحليل وصور الأشعة كل ثلاثة أشهر، أنا أعتني بصحتي، أنا لا أدخن ولا أشرب، أنا ...

ويقترب منا غلام رث الثياب يمد إلينا يده بأوراق النصيب، لا أعرف لماذا يبدأ بي، أنهره، أكاد أضربه، لا أعرف لماذا، يتسلل إليَّ صوت المدير العام هادئاً:

ـ اشتر منه ورقة نصيب، جرب حظك، لعلها تكون مع قدومي الرابحة؟

أنظر إلى وجهه، يبتسم لي، أسنانه بيضاء جداً، منضدة بأناقة، هي أسنان صناعية من غير شك، يبتسم، كأن جمجمة في هيكل عظمي تبتسم لي، أقول له:

ـ نحن العمال لا نقامر على حظنا، نحن نصنع حظنا بأنفسنا.

يبتسم أيضاً، يتمتم من بين أسنانه البيضاء المنضدة بأناقة، يقول شيئاً، ولكن لا أعرف ماذا يقول.

وأنظر بطرف عيني إلى ميشيل، وهو أكبرنا سناً، ثم أشير له برأسي، أدعوه إلى النهوض، لننهي سهرتنا، يتنبَّه إلى حركتي المدير العام، فينطق بهدوء والكلمات تخرج من بين أسنانه كأنه يقرر أمراً لا رجعة فيه:

ـ لا يمكن لأحد أن ينهض إلا إذا نهضت أنا، أنتم في ضيافتي، ولا أسمح لأحد بالانصراف قبلي، هذا هو القانون الذي سنسير عليه، كما قلت لكم: كل يوم جمعة سنلتقي هنا الساعة السابعة، لن يتخلف أحد، ولن يتأخر أحد.

عند نهاية الاجتماع

طال الاجتماع، وامتد على ساعتين ونصف الساعة، تململ القوم، هذا يحك أنفه، وذاك يسعل، وثالث يطوي ورقة في يده، ورابع يرسم على الورقة أمامه خطوطاً، متظاهراً بأنه يكتب، والمدير ما يزال يتكلم، هو وحده السعيد بامتداد الاجتماع، لم يبال، ولم يفهم شيئاً مما قاله المدير، ولم يتنبه إلى الوقت، لا حظ تململ الآخرين وضجرهم، ولكنه كان سعيداً، هي أمامه، الطاولة كأنها لهما وحدهما، الطاولة تصل بينهما، يبسط راحتيه على الطاولة، فتبسط راحتيها، يحس أنه يلامس أناملها، لو كانت الطاولة أضيق لداعب قدمها بقدمه من تحت الطاولة، ولكن الطاولة عريضة، وهي عنه بعيدة، لا، ليست بعيدة، ينقر بالقلم على الطاولة، فتجيبه بنقرة هادئة من أنملها، يكتب على الورقة أمامه: أنت فاتنة، يحس أنها قرأتها، وتكتب شيئاً على الورقة أمامها، يقرؤه بقلبه، أراك بعد الاجتماع، أي اجتماع هذا؟ ليت المدير العام يدعوهم كل يوم إلى اجتماع، الخادم يوزع عليهم فناجين القهوة، يرفع فنجانه، فترفع فنجانها، ترشف القهوة، فيرشف القهوة، وهما يتبادلان النظرات، لا يباليان بالمدير ولا السكرتيرة، ولا أمين السر، ولا النائب الأول للمدير ولا النائب الثاني، إحدى الزميلات رأتهما، ضبطتهما وهما يرفعان معاً فنجان القهوة، كل شيء يمكن تبريره، الأمر مجرد مصادفة، لم يول هذه الزميلة اهتمامه، لم يعد ينظر إليها، حتى لا تشك فيه، ما اعتاد أن يضطرب، ولن يضطرب، حتى لو رآه المدير. متى ينتهي الاجتماع؟ بدأ يحس كأن القاعة سجن، أو قفص، لا لشيء، إلا لكي يخرج ويلتقي معها، سيخرجان معاً، سينزلان في المصعد معاً، وسوف يسيران معاً، ليراهما الجميع، لن يبالي، سمرتها الشهية تطلق كل الطيور الحبيسة، لا أقفاص بعد اليوم، ولا جدران، في شفتيها السمراوين المكتنزتين يحس ارتعاشة هادئة، وهي ترشف القهوة، وعيناها تبسمان له، شفتاها المكتنزتان مبللتان بالقهوة الساخنة، ما أشهى الدفء فيهما، سيقبلها وهي في المصعد،

لطالما تعطل مصعد المديرية، ليته يتعطل، لا، لن ينتظر الظروف حتى تواتي، هو سيصنع الظروف، سيوقف المصعد، سيقتحمها فجأة، يطوق خصرها، ويشدها إليه، ويطبق على فمها، يأخذها بين يديه، يشد على خصرها، يضغط على صدرها الممتلئ الدافئ، لن يرحم النهدين الهادئين الآن، سيجعلهما يضجان، يصيحان، يحس أنهما الآن يناديانه وهي وراء الطاولة ترشف القهوة، ليت المدير يسمح لهم بالتدخين، لا يعرف لماذا يمنع المدير التدخين، كم يتمنى لو يستل سيكارته، يسحبها بأصابعه من العلبة، يشعل رأسها، ثم ينهض ليناولها إياها، يضعها بين شفتيها السمراوين، الآن بدأ يضجر، يريد للاجتماع أن ينتهي، لا بد أن ينتهي، سينزلان معاً إلى الشارع، سيسيران معاً تحت الأضواء، يده في يدها، يعتصر أصابعها، يضم يده تحت ذراعها، يستشعر الدفء المشتعل، يشعلها، ويشتعل بها، ثم ينعطف بها إلى زقاق ضيق، وهناك يسندها إلى الجدار، وفي العتمة المطبقة، يطبق على شفتيها، يعتصرهما، يرتشف الرضاب العذب، يتذوق نكهة القهوة والسيكارة والرضاب، حجارة الجدار وراءها سوف تتداعى، والعتمة سوف تضيء بوقد شوقه اللاهب، ويداه تجوسان خلال الجسد، فتتداعى هي الأخرى بين يديه، يحملها ويمضي، أين ؟ لا يعرف؟ويعلن المدير انتهاء الاجتماع، ينهض هو أول من ينهض، يهم بأن يلف حول المنضدة، كي يصل إليها قبل أن تغادر القاعة، ولكنه يقف، كأنه قد شل، إذ يسمع المدير يتوجه إليها بالخطاب:

ـ سيدتي، أعرف أن الوقت تأخر كثيراً، ولا أريد أن ترجعي إلى البيت وحدك، لا بد أن ترجعي معي في سيارتي.

نوافــذ

نافذة واسعة عريضة عالية، في دار جدي القديمة، أفتح بابها الخشبي المعتم، وأنا طفل، أفتح بابها الزجاجي المضيء، أطل على فناء الدار، أحمل كتابي بين يدي، وأقعد فيها، تأتيني النسمات الصيفية الناعمة، أتأمل البركة، والماء يتقافز من نافورتها، وزهرات الياسمين البيضاء الناعمة تهمي عليها من عريشة تظللها، وقد اصطفت من حولها أصص القرنفل والورد والفل، العبق الناعم ينساب إليّ ممزوجاً بتغريد البلبل وهو يتأرجح في ظلال الياسمينة، وقد علق قفصه في العريشة، وهو يرسل تغريده ، يقطعه، يكرره، يشدو به، همساً وترجيعاً، النافذة هي عالمي، أرتاح فيها، هي كحجرة صغيرة، أحياناً أغفو فيها، وعندما تناديني أمي لأتناول طعامي، لا أغادرها، وغالباً ما تأتيني به، فيحلو لي أن أتناوله في النافذة العريضة، وأنا أتأمل السمكات الذهبية في البركة.

نهضت مرة من نومي، تركت الفراش الدافئ، وأسرعت إلى النافذة، فقد قالت لي أمي: انهض انظر الثلج، غطى الدنيا، وأسرعت إلى النافذة، فتحت الباب الخشبي، ومن وراء الزجاج رأيت الثلج يغمر الفناء، يغطي البركة وعريشة الياسمين، وكانت أمي قد غطت شجيرات الورد والقرنفل والفل بأكياس نايلون بيضاء شفافة، وقد تراكم الثلج فوق تلك الأكياس، وفي فناء الدار صنعت عبر الثلج ممراً لأقدامها، وعلى حافة البركة رأيت آثار أقدام القطة، ورأيت بعض العصافير تحط فوق الثلج، وتنقر فيه، وتحضر لي أمي صحناً من الثلج، وقد سكبت فوقه شراب الورد، وآكل منه، وأنا أنعم بالدفء داخل الغرفة، وأفتح زجاج النافذة، أضع فتات الخبز على حافتها، وأنتظر قليلاً، وتدخل عصفورة إلى الغرفة.

وفي النافذة نفسها أسهر ليلاً، أنهض من فراشي، بعد تقلبي فيه ساعة أو ساعتين، أطمئن إلى نوم أمي وأبي، أحمل المذياع الكهربائي الكبير، وكان أبي قد ورثه عن جده، أضعه في النافذة،

وأصغي إلى أم كلثوم وهي تشدو:" مابين بعدك وشوقي إليه، وبين قربك وخوفي عليه، دليلي احتار" ، وفي هدأة الليل الساكن أصغي إلى اللحن، وقد غمر القمر بضوئه العريشة والبركة وأصص الزهر والفناء، وتموء على الأسطح البعيدة قطة، وفي الزقاق الضيق أسمع وقع خطا الجيران وهم عائدون من السهرة، أسمع صوت باب دارهم وهو يغلق. بديعة ابنة الجيران هي التي احتار فيها دليلي، حلّت عطلة الصيف وسافرت إلى القرية، لتمضي الإجازة عند عمتها، ترى هل تسمع الأغنية الآن مثلي؟.وأهجع إلى الفراش، ومن نافذة أخرى عالية، تقع أسفل السقف، أرى اليمامة البنية راقدة فوق عشها، وقد بنته قشة قشة في عمق النافذة، وراء الزجاج مباشرة، وهاهي ذي ساهرة مثلي، والبدر يطل من ورائها. ما أجمل عطلة الصيف؟ لا وظائف ولا واجبات ولا استيقاظ في الصباح الباكر، ولكن بديعة بعيدة في القرية، ما أقسى عطلة الصيف؟ متى يهل العام الدراسي الجديد؟

**

تدعوني جدتي إلى الذهاب معها، فأسرع إلى أزهى ثيابي، أمشط شعري، وأعدو معها عبر الزقاق، لم أسألها إلى أين؟ أنا أعرف أنها ذاهبة في زيارة صباحية جميلة إلى جارتها أم خالد. وتقرع جدتي الباب، وأرفع رأسي إلى النافذة المطلة على الزقاق فوق الباب، ذات القضبان الحديدية البارزة إلى الخارج، فأرى أصيص زهر فيه شجيرة العطرية، وفي لحظة خاطفة يطل وجه شائخ مملوء بالأخاديد مثل وجه جدتي، هو وجه أم خالد. وترقى العجوزان الدرجات إلى المربّع، وعند كل درجة لابد من وقفة مطولة، لتأمل شجيرات الورد والفل والياسمين والتمرحنة واللبلاب، وأنا في إثرهما أجر خطواتي، كأني في شارع مزدحم بالسيارات ولا أجد لنفسي منفذاً، وأخيراً تستقر العجوزان على حشيّة صوفية، تحتسيان القهوة معاً، وأستقر أنا في النافذة.

النافذة عالية واسعة وعريضة، وفيها عمق، أقعد فيها، وإلى جواري أصيص فيه شجيرة العطرية، أشم أوراقها العطرة، أقطف

زهرة صغيرة من زهراتها الناعمة، وأطل من وراء قضبان النافذة على الزقاق، القضبان من حديد قديم صدئ، لكن أم خالد تمسحه كل يوم، فلا غبار عليه، ولا أثر للصدأ، والزقاق ضيق، بلاطه مفلطح، وأهل الحي يذهبون فيه ويجيئون، نافذة أم خالد أكثر تسلية من نوافذ دارنا. أسطح المنازل أمامي مفتوحة، أطل عليها، في البعد أرى سرب حمام، وإلى السطح المقابل تصعد سيدة في عمر أمي، تحمل سلة فيها غسيل، تلحق بها صبية في عمري، في عمر بديعة، ولكنها مختلفة عنها، بديعة سمراء، شعرها أسود قصير، ممتلئة، هذه ناحلة، طويلة، شقراء، شعرها أشقر طويل مرسل وراء ظهرها. تلتفت أم خالد إليَّ تسألني:

ـ هذه جارتنا أم رجاء، وهذه ابنتها رجاء، هل أعجبتك؟ ما رأيك؟ هل نخطبها لك؟!

النافذة في دار أم خالد حقيقة أجمل من النافذة في دارنا.

**

نافذة ضيقة صغيرة، كأنها فتحة في سيارة نقل المسجونين. أقف وراءها، أحشر وجهي فيها، كأنها مجرد إطار لرأسي، ليس أمامي سوى عمارات شاهقة متراصة، أمامي فتحات نوافذ أصغر من فتحة نافذتي، من نافذة مقابلة أرى سيدة بدينة شبه عارية وهي وراء المرآة في غرفة نومها تمشط شعرها، من نافذة أخرى أرى في عمق الغرفة شيخاً عجوزاً مقعداً، من نافذة مقابلة يطل وجه لرجل في الخمسين في نحو عمري، يرمقني بنظرات شرسة، وهو يفتل شاربيه الأسودين العريضين .

أغلق النافذة، وأمضي إلى غرفتي في داخل شقتي الصغيرة الضيقة، حيث لا شرفة ولا نافذة.

ثلاثة أصابع من القدم

تقع عيناه على أصابع قدمها، دم غزال منسكب على الثلج، كأس حليب مثلج تعلوه كرزات خمس، الحذاء رقيق ناعم، هو من زجاج، أشرطته السوداء تلتف على الساق كالموسيقا الهادئة، الساق مصباح أبيض متألق، يود لو يميل على الحذاء، لو يحتضنه بيده مثل حمامة بيضاء صغيرة، الكعب العالي ناعم، مدبب، رقيق، يود لو يحملها على راحة يده، لو يرفعها إلى أعلى بثوبها الأسود الشفاف، لو تدوس بكعب حذائها الدقيق المدبب في راحة كفه، وهو يرفعها بيده إلى أعلى، وتدور وتدور، وينغرس الكعب في راحة كفه، وتظل هي واقفة.

سيأخذها إلى مزرعته، سينقع قدميها في ماء مثلج، في حليب مثلج، سيغسل القدمين بماء الورد، سيدلك الأصابع، أصابع ناعمة، ممتلئة، ليست ناحلة، متناسقة ومنسجمة، مثل أوتار العود، ينضم بعضها إلى بعض ويتلاقى، مثل لحن تعزفه عشرات الآلات، وفي أطراف الأنامل ينفجر الأحمر، هو دم الغزال على ثلج لم تطأه قدم، سيطفئ الأنوار كلها، ويسدل الستائر، ويضع بين الإبهام الممتلئ الدافئ والإصبع المجاور له شمعة، يشعلها، ويشع النغم الأبيض، يملأ الكون كله، لا يعرف كيف تضع ساقاً على ساق، كأنها تنظم قصيدة، وتهز قدمها بلطف، ومعها يجري الدم في شرايينه، بإيقاع كانهمار الرذاذ، وتتفتح في قلبه ورود وأزاهير مع كل نبضة في الأصابع، هل يهبط على القدم ليقبلها؟

ويلتفت إليها وهي على شماله، في موضع القلب، بهدوء بهدوء، كأنه قطاة، أو كأنها قطاة، لا يريدها أن تجفل أو تحس به، يرى التفاف الفخذين، يلمس الخصر الناحل، يهطل على أعلى الصدر المكشوف، يرشف الماء الزلال، والأسود الشفيف يزيد ألق الموسيقا في الجسد الأبيض، يحس بدفئها، ينفجر البركان في داخله، قلبه ما عاد يدق، بل هو يسرع في الدق، يلتفت إليها، يهمس: " هذا الشعر الذي

نسمعه جميل، ولكن حضورك أجمل، أنت الشعر". تلتفت إليه، تهمي عليه بنظرة، مثل فستقة تتفتح بسمتها، في عينيها ألف قصيدة خضراء، نظرتها العمر كله، تنسدل نظرتها على ربطة عنقه الحمراء، تنزلق فوقها مثل طفلة تنزلق فوق قوس قزح، يحس بربطة العنق قد قفزت إليها، طارت نحوها.

من الصدر الرحب الأبيض الدافئ، وهو يراه يعلو ويهبط مثل بركان، يطير إلى القدم، يأبى إلا أن يحط على الأنامل، أوتار العود، يود لو يداعبها، وهي تهتز، ليعزف عليها لحناً ما سمعته الجن، هل يغمس بين الأصابع ياسمينات أم بنفسجات، الإبهام يغريه، يحسه ناعماً أملس، يود لو يتسلل إليها من تحت المقاعد قط فيخمش الأنامل، أو يعضها، أو يتمسح بها بذيله الأسود الناعم، أو لو يهبط هو إليها ليكتب عليها بقلمه اسمه ويضع توقيعه بحبر سري لا يراه أحد، بل بحبر أسود فاحم وبخط عريض وبكل لغات العالم.

ويضع ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، يميل نحوها، لعله بقدمه يمس قدمها، ولكن قدمه مخنوقة في حذاء أسود، يشعر بالثقة، حذاؤه أسود لامع متألق جديد، هل يمس قدمها به، هل يخلع حذاءه؟؟

ويرن في أذنه صوت مزلزل: "أسرع، عندك ضيف".

يشتم الهاتف الجوال، وحبة العدس الصغيرة التي وضعها في أذنه، يلعن العلم والتطور والتكنولوجيا، هذه الأنامل هذه القدم هي الدنيا كلها، ولكن، لعل شريكه يدعوه من أجل زبون جاء يشتري عقاراً أو يبيع أرضاً، أوصى شريكه قبل أن يخرج أن يتصل به إذا جاء زبون دسم، ثم خرج من المكتب، رافع الرأس مشدود الظهر، وخطا خمس خطوات، وبهدوء فتح باب النادي، ودخل، ووقف بالباب، النادي ممتلئ بالرواد، عشاق الكلمة والشعر، أرسل زفرة.

أضعت حياتك يا مجيد، كتبت الشعر وعشقت وأحببت، وانتسبت إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وأنت تأمل أن تكون أعظم من علي محمود طه ومن أحمد شوقي وجبران خليل جبران، ولكن دفنت نفسك في مكتب عقاري، وأحرقت شعرك كله في مطبخ

زوجة لا تجيد سوى غسل الصحون، ثم تنام إلى جوارك بثوب المطبخ، ولكن، سرعان ما ثرت وتمردت، امتلكت المكتب، وفرشته بفاخر الأثاث، وإذا هو أفخم من مكتب الوزير، وسيارتك المرسيدس أمامه، وخادمك عبد الله يفتح لك باب السيارة، يمسحها ليل نهار، ويصب لك ولضيوفك القهوة المرة، وأنت الأمير أو الوزير، يقصدك الأغنياء لا الفقراء، ومزرعتك تستقبل كل يوم الفتاة التي تريد، وما ذا تريد بعد ذلك؟ هل تريد الشعر؟ وهذا زميلك في أيام الجامعة رئيس النادي إلى جوارك، كل يوم يمر بك يدعوك، وهو الآن ينهض من عمق النادي، وهو وراء المنصة إلى جانب الشاعر يدعوك، يشير إلى مقعد خال في الصف الأول، وإلى جانبك هذه السيدة الناضجة، وهذا شريكك يدعوك أيضاً، هل تبقى مع الشعر وتترك بيع أرض أو شراءها؟ هل تدوس على مليون ليرة أم هل تدوس على قدم هذه السيدة؟

ويمد يده إلى جيبه، يخرج بطاقة تحمل اسمه، يقدمها إلى السيدة، هامساً:" تفضلي، سيدتي، هذه بطاقتي، أتوقع زيارتك لي بعد انتهاء الأمسية الشعرية، لتشربي قهوتي المميزة، مكتبي بجوار النادي مباشرة"، يقدمها إليها وهو يداعب ربطة عنقه الحمراء المشتعلة كأنها فوهة بركان، واثقاً من أنها ستأتي إليه فوراً عقب انتهاء الأمسية، بل ستلحق به بعد ثوان.

ويخرج بهدوء، بخطا موقّعة، مشدود الظهر، رافع الرأس، يمر بين صفي المقاعد مثل وزير، ورواد الشعر والأدب هم حرس الشرف، وهو دلال العقارات يستعرضهم بزهو مطلاً عليهم من قمة ثلاثة ملايين ليرة سيربحها الآن، فهو يتوقع أن يكون ذلك العجوز المسدود الشرايين قد جاءه ليبيع أرضه قبل موته، ويتمتع بها ولا يترك للورثة شيئاً.

وبخمس خطوات مثلما دخل إلى النادي يدخل إلى مكتبه، طاولته وكرسيه وهواتفه ولوحة: "هذا من فضل ربي" كلها تنتظره، يحتويها، يتفقدها، يعانقها، يعرف أن شريكه الصغير لا يمكن أن يحتل

موقعه في غيابه، ويلقي نظرة على رجل صغير آخر نهض من أحد المقاعد يحييه.

ما الذي جاء بهذا الخادم الذي لم أر وجهه منذ خمس سنين، ألهذا اتصل به شريكه وأخرجه من الجسد الأبيض ليزلقه على هذا الجسد المسلول القميء.

ويتكلم الأجير الخادم القديم متابعاً حديثاً مقطوعا:" سيدي، كنت أتكلم عن الممرضة التي أقعدتني على كرسي نقال، ووضعت قدمي في طست أبيض، مملوء بماء نقي رقيق شفاف، له رائحة غريبة نفاذة، وأخذت تدلك قدمي وأصابعي، ذكرتني بأمي يوم كانت تدلك أصابعي قبل أن أنام، كانت جميلة جداً، شقراء بيضاء، لا أعرف لماذا اختاروها ممرضة جميلة".

وهل تعرف أنت معنى الجمال؟ أي أنثى تراها جميلة، ولماذا تمد رجلك هكذا أمام مكتبي لتريني قدمك؟ لماذا هي ملفوفة هكذا بالقماش الأبيض، وقد اتسخ من الشوارع، مثل طائر أبيض ميت مرمي على الرصيف، يا للقذر.

"ثم نشفتها بمناديل ورقية كثيرة، معقمة، ودلكتها، كانت تكرم أصابعي مثلما يكرم الميت قبل دفنه، ثم دفعتني وأنا في الكرسي النقال، كنت أستطيع النهوض والمشي، ولكنها أبت إلا أن تدفعني، وسارت بي في ممرات طويلة".

ويعلو صوته سائلاً شريكه بنزق:

ـ لماذا اتصلت بي يا أبو جميل؟

أبو جميل يضحك ببلاهة، ويجيب:

ـ اسمع، ثلاثة أصابع، بخمسة عشر ألف ليرة.

ويتابع الخادم القديم الصغير الناحل ذو القدم الملفوفة بالقماش الأبيض المتسخ قصته: " ثم دخلت بي إلى غرفة العمليات، وهناك رأيت ثلاثة أشخاص، لا أرى سوى عيونهم، ثيابهم خضر أو زرق أو بنفسجية، ما عدت أعرف بالضبط، من رأسهم إلى قدمهم تغطيهم تلك الثياب التي ما عدت أميزها، غمرتني رائحة غريبة، وأخذتني برودة،

كأنني في القطب، ونز عرقي على جبيني، ثم مددوني على منصة، وأحسست بلسعة خفيفة في باطن قدمي، والأضواء الباهرة الكاشفة فوقي، كنت أحس وأرى كل شيء، عرفت أنه مجرد تخدير موضعي" .

وينهض مجيد بك من وراء مكتبه الفاخر، بطوله السامق، وقامته المديدة، يفك ربطة عنقه الحمراء التي كانت تتقافز فوق صدره، وهي الآن نائمة على صدره مثل جبل، مرخاة، متهدلة، يود لو يخلعها. ويسأله شريكه:

ـ هل تريد أي شيء؟

ـ لا، لا ، أريد أن أشرب، جف ريقي؟.

ويعلق شريكه:

ـ أنا سأحضر لك كأس الماء بنفسي، تابع القصة، قصة مشوقة، كان سيحكيها لي، ولكن أردت أن تسمعها معي.

" رأيت منشاراً صغيراً، تناوله الممرضة للطبيب، ثم أحسست بشيء بارد ناعم حاد ساخن يدخل في أصابعي، يحزّ في العظم، حرت في أمري، أحس بشيء لذيذ ممتع، ولكنه في الوقت نفسه مؤلم، قليل الألم، مثل قطة تخمش أصابعي أو تعضها بأنيابها".

مجيد بك، يفك ربطة عنقه، ينهض، يخرج من وراء طاولته، يمضي في فسحة المكتب، محنيّ الظهر، يتداعى.

ينهض إليه الأجير القديم، ليقول له: "قطعوا ثلاث أصابع من قدمي، ما قطعوها حتى قبضوا خمسة عشر ألف ليرة، كل إصبع بخمسة آلاف، وسبب هذا كله السكري، ما كنت أعرف أنه نخر جسمي، كانت ساقي كلها ستقطع".

يكاد يسقط، العرق ينضحه، جسمه مشتعل، دوار في رأسه، يعبر المكتب، متهدل الكتفين، يجر قدميه جراً، متجها نحو الباب، يحس أنه سوف يسقط، يحاول تمالك نفسه، يمسك مقبض الباب، يستند عليه، الأرض تلف وتدور، يفتح قميصه، يخلع ربطة عنقه الحمراء،

يحس بوخز في أنامل قدمه. "وأنا يا ابن الزنا أعاني من السكري، ولا أحد يعرف".

صوت الأجير ما يزال يرن في سمعه، لا يريد أن يصمت:"كان الثلاثة يتكلمون بالإشارات، أحسست بوخزات ناعمة، كانوا يخيطون الجرح، يسدون العروق النازفة، رأيت الدماء على الكفوف التي في أيديهم، تمنيت لو يعطوني أصابع قدمي".

ينـدفع إلى الخارج، يريد تنسم الهواء، يتجه إلى سيارته المركونة أمام المكتب، يمد يده ليستند إليها، وربطة عنقه الحمراء في يده، كأنها عكاز يتوكأ عليها، قبل أن يبلغ سيارته يسقط على الأرض.

يفتح عينيه، وهو يتنفس بصعوبة، وجوه كثيرة تطل عليه من فوق، وهو مستلق على الرصيف، إلى جوار عجلة سيارته، حذاؤه ملوث بالطين، ربطة عنقه الحمراء ملوثة بالطين، شريكه يساعده على رفع رأسه قليلاً، يلتفت، يرى أرجلاً كثيرة على الرصيف تحيط به، ثمة قدم ملفوفة بقماش أبيض متسخ، يشيح بنظره عنها، فيرى أصابع بيضاء متألقة في أطراف أناملها دم الغزال وهي في حذاء زجاجي، يود لو يمسك كعبه العالي الحاد المدبب، لو يستعين به كي ينهض.

جولة في شارع فيصل

فـور خروجـه مـن غرفـة العمليـات وجـد سـيارة الإسـعاف بانتظاره، تأكد من تجهيزاتها، أسطوانة الأوكسجين، السيروم، مميع الدم، طلب من صديقه الدكتور هشام أن يصحبه، اثنان من الممرضين دخلا في السيارة، فتح هاتفه الخلوي، وكان مقفلاً، اتصل بأخته:

ـ كيف حال أمي؟؟

ـ ضيق في الصدر، ودوار، لا تكاد تتوازن، ترى الدنيا مسودة، تحس بألم شديد في الرأس.

ـ وحبة الضغط؟

ـ أخذتها من ساعة.

ـ متى نهضت في الفراش؟ وماذا أكلت في الصباح؟

ـ صلت الفجر، الساعة الرابعة، وقعدت تقرأ في القرآن حتى السادسة والنصف، ونامت، ثم نهضت في الثامنة، كادت تسقط على الأرض.

ـ لا تقلقي، هذا تشنج، أمي عندها مناقير، دلكي رقبتها بلطف، مع بعض الحركات الهادئة.

ـ رأسها يؤلمها

ـ وضغطها؟

ـ قسته منذ ساعة، العلوي 15 والسفلي أقل من 9

ـ عادي جداً، لا تقلقي.

ـ أين أنت؟ هاتفك مغلق.

ـ كنت في غرفة العمليات، الدكتور هشام دخل الغرفة وأخبرني، مع أني أوصيت الممرضات بعدم إدخال أحد، أنا في الطريق، بعد عشر دقائق أكون عندك.

*

وتنطلق سيارة الإسعاف، من أمام مشفى شيحان عند نهاية شارع تشرين، السائق يطلق بوق الإسعاف، يلتفت إليه، ويقول له:

ـ أغلق هذا الصوت المزعج.

ـ لا بد منه، كي يفتح الطريق لنا، الشارع مزدحم.

السيارة تخترق شارع تشرين الممتد أمامه واضحاً، هو حافل بالسيارات، ولكن ليس ثمة ازدحام، الدكتور منير يعلق:

ـ عند متنزه السبيل يبدأ الزحام، تصب فيه السيارات القادمة من شارع النيل.

عند متنزه السبيل حقيقة بدأ الازدحام، وكان لا بد من إطلاق بوق سيارة الإسعاف، التفت إلى متنزه السبيل، الأشجار الكبيرة شاخت، بل احترقت من سخام السيارات، حول البركة في المتنزه كم ركض مع أخته سناء، وأمه وأبوه على المقعد متجاوران، بل متلاصقان، كان يشعر بالحب الذي يجمعهما، ما كانا يترددان في أن يمسك أحدهما بيد الآخر، رحمك الله يا أبي، لا أنسى الصورة التي التقطها لنا المصور في متنزه السبيل، أنت تقعد على حافة البركة، وأنا واقف إلى جوارك، كم أنا صغير، كنت في الخامسة من عمري، وأنت طويل، أنت أطول مني وأنت القاعد، وأنا أقصر منك وأنا الواقف، والبركة وراءنا، وأمي على المقعد، لا أعرف لماذا لم تأخذ صورة لنا معاً يومئذ، كم متنزه السبيل رائق في الصباح، كم الهواء منعش وجميل، ولا بد من أن نتناول فيه طعام الإفطار، المأمونية تطبخها أمي في البيت، مع الجبن، وأنت تشتري لنا من السوق الشعبيات، المملوءة باللبأ أو الجوز أو الفستق الحلبي، أنا ما كنت أحبها إلا بالفستق الحلبي، ما كنت أحب اللبأ، ولا بد من أن تنزل في الصباح الباكر إلى شارع التلل، لتشتريها من محل الطرقجي، قبل السابعة، وإذا تأخرت تكون قد نفدت، مد الله في عمرك يا أمي، ورحمك يا أبي، ما كنت أتوقع ...

يفتح هاتفه الخلوي، ويتصل:

ـ صباح الخير

ـ أهلاً دكتور منير .

ـ أمـي بحاجـة لـبعض الفحوصـات، أرجـو تجهيـز سـرير فـي العناية المشددة، سأحضرها بعد عشر دقائق.

ـ بـأمرك دكتـور منيـر، مشـفى الـرازي كلـه مسـتعد لاسـتقبال الوالدة، نـحن بحاجة إليك، لا تنس موعدنا اليوم في التاسعة والنصف مساء، المريض معنوياته عالية، خاصة لما سمع أن العمليـة ستكون بإشرافك، أنت فخر لنا، هل أرسل لك سيارة إسعاف؟.

ـ لا، شـكراً، أنـا كنـت فـي مشـفى شـيحان، الآن خرجـت مـن خـامس عمليـة قلـب مفتـوح أشـرف عليهـا فـي هـذا المشـفى خـلال أسبوع واحد، أنا الآن قريب من مشفى الرازي، خط المرور تغير في حلـب، مـا كنـت أعرفـه علـى هـذا الشـكل مـن قبـل، الازدحـام شـديد، سنضطر إلى اللف حتى ندخل إلى بيت الوالدة في أول حـي السريان القديم.

ـ أنت فخر لنـا، أنـا بانتظـارك مـع الوالـدة فـي الطـابق الثالـث، السرير جاهز بانتظارها.

السائق يتجاوز الإشارة الحمراء، وهو يطلق بوق الإسعاف، يمر أمام مشفى الرازي، ينعطف في الشارع الموازي لخط القطار، متجهاً نحو مدخل حي السريان، الدكتور منير يقول له:

ـ وصلنا تقريباً، أرجوك، أغلق هذا البوق، ونحن في الطريق إلى المشفى وأمي معنا لا تسمعني صوته.

ـ دكتور علمت أنك كنت في السويد، عندكم هناك سيارات الإسـعاف كيـف تمشـي؟ السـيارات عنـدكم بالتأكيـد أكثـر، أنـتم بلـد الفولفو؟

الدكتور منير يقول له:

ـ صـدقني قلبـي لا يشـتهي الضـحك، أمـي متوعكـة، وأنـت تضطرني للضحك، أرجو ألا تقول عندكم، أنا هناك عربي سوري، مـا أنا سويدي، مع أنه مضى عليّ أكثر من عشرين سنة، ومعي جنسية سويدية، يمكن أن تسألني وتقول: هنـاك فـي السـويد، عل كل حـال

اسمع، هناك السيارات أكثر، هذا صحيح، لكن ما كلها فولفو، والشوارع مخططة على مسارب، وكل سيارة تسير في مسرب وفق سرعتها، وأول مسرب على اليمين لا تسير فيه أي سيارة.

السائق يدخل في حي السريان القديم، وهو يسأل:

ـ أبداً لا تسير فيه أي سيارة؟

ـ أبداً، هو مخصص لسيارات الشرطة والإسعاف، ولا تدخل فيه أي سيارة.

ـ ولا سيارت المسؤولين أو أولادهم؟

الدكتور منير يرد مؤكداً:

ـ إلا سيارات الإسعاف والشرطة، ولا تطلق مثل هذا البوق المزعج، أغلقه، وانعطف في أول شارع على اليسار، وأوقف سيارتك أمام البناء الثاني.

السائق يعلق:

ـ يبدو أن المسؤولين هناك ما عندهم أولاد.

*

الدكتور منير يقبل جبين أمه، يأخذ فوراً في قياس الضغط، ثم يستمع إلى دقات القلب، ثم يقول لها:

ـ ضغطك العلوي 14 والسفلي 8، قلبك أقوى من قلبي، سنذهب إلى المشفى لإجراء بعض الفحوصات.

يدخل الدكتور هشام، يتبعه الممرضان يحملان النقالة، الدكتور هشام يقول لها:

ـ هيا، يا خالة، النقالة بانتظارك.

ـ لا يا ولدي، سأنزل على الدرج.

الدكتور منير يتدخل:

ـ يا أمي،النقالة مريحة، وسيحملك الممرضان.

الأم، ترد مصممة:

ـ أقسم بالله، لن أنزل إلا على الدرج، أبوك جاءته الجلطة، وما رضي أن نحمله على النقالة، وأنا مثله، سأنزل على الدرج، ولو متّ مثل والدك، ليتك حضرت موته يا منير.

يتهدج صوتها، تمسح دمعتين، الدكتور منير يأخذ يدها بين يديه، ويقول لها:

ـ أمي، أرجوك، لا تتذكري الآن الوالد، أنت..

تقاطعه صائحة:

ـ أنا ما نسيته حتى أتذكره، هو الآن قدامي، أنا أراه، وهو نازل على الدرج.

الدكتور هشام يهمس للدكتور منير:

ـ هذا الكلام وحده يرفع الضغط، سأطلب من الممرضين حملها.

الدكتور منير يهمس له:

ـ أمي عنيدة، أنت لا تعرفها، اتركها، واضح، صحتها جيدة.

يحاول الدكتور منير إمساك يدها، وهي تنزل على الدرج، ولكنها تأبى، تقول له:

ـ اطمئن، عمري ما صار ستين، سأنزل على الدرج وحدي.

أمام باب البناء تصيح مدهوشة:

ـ سيارة إسعاف؟؟ لا، والله، لا أصعد فيها، خذ لي سيارة أجرة.

الدكتور هشام يتدخل:

ـ يا خالتي سيارة الإسعاف مريحة، فيها سرير، فيها كل التجهيزات.

ـ هشام بك، أنا ربيتك وأنت صغير، أنت صديق ابني منذ الطفولة، تريد أن توفر على ابني أجرة سيارة.

ـ لا، يا خالتي، ما هذا قصدي، سيارة الإسعاف مريحة، ومجهزة بكل شيء، وفي الطريق أقيس ضغطك، وأعلق لك السيروم.

وتلتفت إلى ابنها الدكتور منير تقول له:

ـ لا أركب إلا في سيارة أجرة، مثل والدك، سأموت في الطريق مثل ما مات أبوك.

الدكتور منير يقول لها:

ـ أنا بأمرك، يا أمي السيارة جاهزة، حجزت لك سريراً عند صديقي الدكتور أسعد في مشفى الرازي.

تقف، تحدق فيه، تضع يدها في خصرها، تقول له:

ـ لا أذهب إلى الرازي، ولو كانت كل المشافي مغلقة، هل تريد أن يقول الناس عن أمك ماتت في مشفى حكومي مجاني، خاص بالفقراء؟ هل أنت بخيل؟ لا تريد أن تصرف عليّ أي ليرة؟؟ خذني إلى مشفى شيحان.

الدكتور منير يبتسم، ويقول:

ـ يا أمي، هذه الأفكار قديمة، غير صحيحة، والمشافي كلها تحت تصرفي، ابنك رئيس قسم جراحة القلب في أكبر مشافي استوكهولم، وأول ما سمع مدير الصحة هنا في حلب بوصولي حتى حجز كل وقتي للإشراف على عمليات القلب المفتوح في كل المشافي الخاصة والعامة، حتى مشفى شيحان لن أدفع فيه أي قرش، وعلى كل حال، لن تموتي، وجهك مثل الورد.

وتنزل وراءها ابنتها، تضع شالاً أبيض على رأسها، وتسألها مستنكرة:

ـ أمي كيف نزلت من غير حجاب؟؟

الأم تقف ذاهلة، وتقول:

ـ يا ويلي، سأرجع إلى البيت، أنا في العدّة، كيف نسيت.

ويتكلم الدكتور منير:

ـ يا أمي، المرأة وهي في العدة يمكن أن تخرج من بيتها، وتذهب إلى عملها أو لقضاء أمور ضرورية.

ـ والله يا ابني لما مات جدك قعدت جدتك في البيت أربعة أشهر، ما كانت تقابل الرجال، ولا تسمع صوتهم، حتى الولد في العاشرة من عمره ما كانت تقابله، ولا تنظر في المرآة، أنا أتذكر أنها

غطت المرآة بقماش أسود، وبعد أربعة أشهر وعشرة أيام غطت على وجهها، وراحت مع عمك، وهو أكبر من والدك، إلى المقبرة، والغطاء الأسود على وجهها، قبل شروق الشمس، وهناك مع الفجر كشفت عن وجهها أمام قبر زوجها، جدك.

ـ هذه كلها عادات وتقاليد يا أمي ، وما هي من الإسلام، والآن هذه سيارة أجرة من أحدث موديل تفضلي اركبي وارتاحي.

ويلتفت إلى سائق سيارة الإسعاف، يقول له:

ـ اذهب أنت، ما عدنا بحاجة، شكراً.

ويقول له سائق سيارة الإسعاف:

ـ اسمح لي دكتور، سأبقى أمامكم بسيارتي، حتى أفتح لكم الطريق، والله لن أغلق بوق الإسعاف.

ـ أنت اسبقنا ولا تشغل نفسك لأجلنا.

ويتكلم سائق الأجرة:

ـ أنا سأفتح بوق سيارتي، عندي بوق هوائي مثل شاحنة بعشر عجلات، لن أترك أي سيارة أمامي.

*

ويرفع الدكتور منير الهاتف الخلوي يتصل بمدير الرازي، يعتذر إليه، ويرد عليه مدير الرازي مؤكداً أنه كان عازماً على الحضور أيضاً بنفسه من أجل مكانة الوالدة ومكانته.

وتدخل سيارة الأجرة في شارع فيصل، الدكتور هشام إلى جانب السائق، وفي المقعد الخلفي الأخت والأم والدكتور منير، الأم تقول:

ـ هل رأيت يا ولدي؟ لم تمر على وفاة والدك ذكرى الأربعين حتى انتهوا من فتح الشارع، انظر معي، انظر هنا، عند منتصف الشارع، عند هذه الإشارة الضوئية الجديدة، وما كانت موجودة من قبل، هنا وقفت سيارة الأجرة، وفيها والدك، والشارع كله أتربة وغبار وحجارة وشاحنات ومئات الحفر، هنا في هذا الموضع، الإشارة الآن حمراء، هنا وقفت سيارة الأجرة، وهنا والدك لفظ

روحه بين يدي أنا، قبل ما نصل لا للرازي ولا شيحان، ما قطعنا غير خمسمئة متر بعد بيتنا، من سوء حظ والدك بدأت الحفريات، وقلعوا الأشجار، وبدؤوا بتعريض الشارع.

وتتكلم الأخت:

ـ لو كنت يا أخي في سورية، لو كنت معنا، كنت أنقذته، كان ما مات، الله يلعن الغربة.

الدكتور منير يتكلم:

ـ لا تقولي هذا الكلام يا أختي، أعرفك مؤمنة بالله تعالى، هذا الكلام لا يقوله حتى الأطباء هناك في استوكهولم، نحن نعرف مهمتنا، هي تخفيف الألم، تقديم المساعدة للمريض، التدخل العلاجي عند الضرورة، نحن ننقذ الجسد، ولكن لا يمكن أن ننقذ الروح، نحن نقوم بواجبنا، ولكن نعرف أن الأعمار بيد الله، والمنية إذا حانت فلا ينفع أي شيء، هذا عمل الله، وليس عملنا.

ويضيف الدكتور هشام:

ـ وفي كثير من الحالات نصل إلى اليأس، وفجأة نجد قلب المريض أقوى ما يكون.

وتأخذ الأم في البكاء، وهي تقول:

ـ يا ليت كان قلبي أنا ولا قلب والدك يا منير، قلبي الآن سوف يطب.

الدكتور منير يضحك:

ـ يا أمي، ما كل شيء هو القلب، وجملة "قلبي سوف يطب" كل يوم أسمعها هنا ألف مرة، ما من مريض إلا يظن أن قلبه سوف يطب، قليل من وجع الرأس يعني عندكم فوراً جلطة، شيء غريب، ما عندكم شيء من الوعي الصحي.

ويتكلم الدكتور هشام:

ـ أنت تنتهي إجازتك بعد عشرة أيام، وتعود إلى السويد، ونبقى نحن هنا، نعاني.

وتتكلم الأم:

ـ يا بني، مدد إجازتك، حتى تحضر ذكرى الأربعين على وفاة والدك.

ـ صدقيني يا أمي بصعوبة أخذت إجازة لأسبوعين، لا بد من عودتي، المرضى هناك في الانتظار.

ـ بلدك أولى بك يا ابني، وأمك أولى، صدقني سأموت قبل الأربعين.

ـ يا أمي، أرجوك، لا تعودي إلى ذكر الموت، الأعمار بيد الله، وكل إنسان له أجله المحتوم، ولا أحد يعرف.

ـ هنا، هنا يا ولدي، عند هذه الشجرة ناداني أبوك، صوته رن في أذني، وأنا أسير على الرصيف، صبية ابنة عشرين، مغرورة، الدنيا كلها لا تسعني، وأنا أحلى بنت تتبختر في شارع فيصل، نعم، شارع فيصل، ما أدراك ما شارع فيصل، أرقى شارع في حلب، هو الطريق إلى متنزه السبيل، وأمك لو كنت تراها وهي صبية، وهي تتبختر في شارع فيصل، ولكن من هذا الصعلوك الذي يناديني، هيفاء، ما كان اسمي هيفاء، ومرة ثانية يناديني هيفاء، يا للوقح، سألتفت إليه لأشتمه، ولكن صوته مثل صوت خالك، كأنه صوت أخي جمال، صدقني هكذا جاءني صوته، وألتفت إليه، طول مثل السنديانة، وجه أحمر مثل القمر عند بزوغه، أدهشني

يسألها الدكتور هشام:

ـ وجهت إليه الشتائم؟

ـ لا والله، وقفت ذاهلة، قلت له: صوتك مثل صوت أخي جمال، أجابني: طبعاً، أنا شقيق روحك، إذا كان أخوك جمال، أنا جميل، ناديني جميل، نظرت في عينيه العسليتين، وسار بجواري، بل سرت أنا بجواره، غطاني بظله، غمرني عطر البروت الفاغم، عطر رجل متميز، قال لي: الرصيف هنا تغمره الشمس، وهي حادة، تعالي لنسير هناك في الممر الضيق في منتصف الشارع، بين أشجار الصنوبر العالية، ظلها سيحمينا من الشمس، فهمت قصده على الفور، الممر هناك ضيق، سنسير متقاربين، بل متلاصقين، وهو

الممر الذي يسير فيه المحبون والعشاق في طريقهم إلى متنزه السبيل، ونحن نحاول قطع الشارع أمام سيارة عابرة أمسك بيدي، وسرنا في الممر الضيق، تحت أغصان الصنوبر المتعانقة، ظلها يغطينا، شذاها ينعشنا، وهو بقربي، يحاول بين لحظة وأخرى أن يلمس يدي، وهو يقول لي: من هذه اللحظة أنت هيفاء، إذا رن الهاتف ورد أحد في البيت غيرك فسوف أقول لهم: من فضلكم أعطوني هيفاء، وإذا قالوا الرقم غلط، اعرفي أنك أنت المقصودة، صدقني يا ولدي فرحت بهذا الاسم، أبي سماني علياء، وهذا الرجل يسميني هيفاء، أحسست أنني ولدت من جديد.

سناء تصفق وهي إلى جوار أمها، وتقول:

ـ ما شاء الله، أمي تروي لنا قصة حبها

ـ نعم، أرويها لكم قبل موتي.

الدكتور هشام يعلق:

ـ أرجوك يا خالة، لا ترهقي نفسك بالكلام.

السيارة تقف عند الإشارة وهي حمراء، الدكتور منير يتكلم:

ـ يا أمي نحن وصلنا إلى متنزه السبيل، أنت ما شاء الله بصحة وعافية، ما رأيك، سننزل في السبيل، نقعد في المقصف، نشرب فنجان قهوة، أنا على يقين، أنت لست بحاجة إلى مستشفى، أنت بحاجة إلى النزهة والترويح عن النفس.

ـ أي نزهة يا منير، بعد والدك لا نزهة، ولا سبيل، بعد والدك الموت، والموت وحده.

ـ يا أمي أرجوك، لا تعودي إلى ذكر الموت، حدثيني عن أبي، عرفت أنه كان يريد السكن مع أهله.

ـ نعم، كان يرغب في السكن في نفس عمارة أهله، في البناء الواقع بعد الرازي مباشرة، أنا رفضت.

ـ طبعاً، من حقك أن ترفضي، حتى لا تسكني في نفس البناء مع حماتك

ـ لا يا منير، كنت أريد السكن في أقرب بناء إلى شارع فيصل، حتى نسير فيه دائماً، حتى نسير في الممر الضيق، ممر المحبين والعشاق، وسط شارع فيصل، وأشجار الصنوبر تظللنا، ونحن في الطريق إلى السبيل، والسيارات تمر على الجانبين، ما كانت السيارات كثيرة، في الساعة الواحدة لا تمر سيارة، ولذلك كان السكن في أول حي السريان القديم، والآن يا خسارة، راح الممر، اقتلعت الأشجار كلها، عبد الطريق، أصبح في اتجاه واحد، لو ترى يا ولدي جذور الأشجار وهي تقتلع، كأنها عروق قلبي، ما أجمل الشارع وهو مظلل، والآن وهو مكشوف.

ـ يا أمي هذه هي سنة الحياة، الأشجار عمرها مئة سنة، شاخت، واحترقت، والشارع نفسه اختنق، الآن الشارع مفتوح وعريض وواسع ومريح، النظر يمتد فيه ويمتد، كان مثل شريان مسدود، مثل صمام مغلق بالشحوم، لا بد من فتح الشريان، لا بد من تبديل الصمام، وقد نضطر إلى تبديل القلب كله، من أجل حياة أجمل.

ـ القلب لا يتبدل يا ولدي، يبقى القلب هو القلب الأول.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

ـ كأنه كان يعرف أن الأشجار سوف تقتلع ذات يوم، ويحل محلها الحديد والإسمنت، أكثر من مرة قلت له: تعال نرسم قلبين ونحفر اسمينا على جذوع الأشجار، كان يضحك، ويقول لي: " هذا ما يفعله العشاق الصغار، اسمي محفور في قلبك، واسمك محفور في صميم قلبي من قبل أن تغرس كل أشجار العالم".

ويقاطعها الدكتور منير ليحدث أخته:

ـ تذكّري يا سناء، كنا في كل صباح نذهب إلى السبيل، وكنا لا نسير على الرصيف، كنا نسير في الممر الضيق بين أشجار الصنوبر، وأمي تقول لنا: اركضوا أمامنا يا أولاد، اسبقونا، ونلتفت لنرى أمي ممسكة بيد أبي، وكنت أنت يا سناء دائماً ميالة إلى المشاكسة والعناد، لآ بد أن تسيري بين أبي وأمي، ويدك في يد أمك، والأخرى بيد الوالد، والسير بينها وبين أبي، حتى لا تمسك هي يده.

وتتكلم الأم:

ـ خسارة يا ولدي، أول ما قلعت الأشجار من شارع فيصل أحسست أنهم قلعوا قلبي، توقعت حدوث شيء، تشاءمت من قلعها، قلت في نفسي قلعوا قلبي، لا بد أن يحصل شيء، وحصل كل شيء.

ـ كان من الضروري قلعها، شاخت وكبرت.

ـ لا شاخت ولا كبرت، أنتم الجيل الجديد حرقتموها بسياراتكم، دخان سياراتكم أعدمها، أفنيتموها، وأفنيتم عمرنا معها، قلت لوالدك قبل موته: أنا متشائمة من قلع الأشجار.

ـ يا أمي هذه هي سنة الحياة، هذا قانون التطور، أنت شفت الشارع من قبل، وهو ضيق وخانق، ولا بد من الازدحام، الآن الشارع عريض، وواضح، ومريح، والسيارات تسبح فيه سباحة.

ويتكلم السائق:

ـ يا خالتي نحن في عشر دقائق قطعنا شارع فيصل، كنا نحتاج إلى نصف ساعة حتى نتجاوزه، من فرط الزحام، والآن دخلنا في شارع تشرين، خمس دقائق نكون في مشفى شيحان، بإذن الله، تعريض الشارع أنقذ حياة كثيرين، هذا الطريق كأنه خاص بمشفى شيحان.

وتتكلم الأم:

ـ هذا الطريق مات فيه أبوك يا منير، بسبب الحفريات مات، والآن هو سهل مثل السمن، ليت الحفر ظلت فيه، كنت مت، مثل ما مات أبوك.

ويعلق الدكتور منير:

ـ يا أمي، يا أمي، لن تموتي يا أمي.

ويتكلم الدكتور هشام:

ـ أنت ربيتني، وأنا مثل ابنك، بنفسي سؤال

ـ تفضل اسأل

ويسأل هشام وهو يبتسم:

ـ هل حصل بينك وبين والد الدكتور منير خلاف؟ هل خاصمته ذات يوم؟ أو خاصمك.

الأم ترسل زفرة طويلة، ثم تقول:

ـ أقول لك، مثل ما قالت أم كلثوم: كل العواطف الحلوة بينا، كانت معانا حتى بخصامنا.

سناء تعلق:

ـ الله الله، يا أمي ما هذا؟!

ثم تربت على كتف السائق، وتقول له:

ـ أرجوك، لف بسيارتك حول هذه المستديرة، لن نمضي إلى مشفى شيحان، سنرجع، سنمضي إلى متنزه السبيل، أمي حقيقة ليست بحاجة إلى مشفى، أمي بحاجة لنا، كي نقعد إلى جوارها لنسليها، تريد أن تحكي لنا قصة حبها.

يتكلم الدكتور هشام:

ـ الأفضل أن نذهب إلى المشفى، لإجراء بعض الفحوصات والتحاليل.

ويتكلم الدكتور منير:

ـ أنا مع الدكتور هشام، وهناك ثلاثة مرضى بانتظاري.

وتعلق الأم بغضب:

ـ لا يا منير، إذا كنت ستأخذني إلى المشفى وتتركني هناك وتلتفت إلى المرضى فلن أذهب، خذني إلى متنزه السبيل، أنا طلبت من سناء الاتصال بك، أصررت على مجيئك من السويد لا لتودع والدك قبل دفنه، أنا أصررت على مجيئك، أنا قلت لهم اتصلوا به، لتكون إلى جانبي أنا، هنا، في حلب، خذني إلى السبيل، لا تأخذني إلى المستشفى، أنا لن أموت.

السائق يلف بسيارته حول الدوار، يعود بهم إلى متنزه السبيل، الأم تكلم السائق:

ـ أرجوك، لا تسرع، سر على مهلك، بأبطأ ما تستطيع، نعم، هناك، أمامنا، عند باب السبيل كان دائماً موعد اللقاء، عند الساعة

الخامسة مساء، قبل الغروب، كان موعدنا، أنا آتي من الشمال، وهو يأتي من الجنوب، يرى كل منا الآخر قبل نقطة اللقاء بخطوات، نسرع، موعدنا مضبوط لا على دقات الساعة، هو مضبوط على دقات قلبينا، نلتقي في نفس اللحظة في نفس النقطة، تتعانق كفانا، ونمضي معاً، الدنيا كلها ملكنا، نطير مثل فراشات، لا نحس ببرد الشتاء، ولا حر الصيف، وفي الصباح الجميل كنا نسمع صوت فيروز هنا في السبيل وهي تغني لنا من المسجل: "سألتك حبيبي لوين رايحين، خلينا خلينا تسبقنا السنين، إذا كنا على طول التقينا على طول، ليش نتلفت خايفين".

سناء تعلق:

ـ الله، الله، يا أمي، صوتك حنون، والله ما كنت أعرف صوتك، أبي كان وحده يسمع صوتك.

السائق ينعطف بهم في مدخل متنزه السبيل، يسير بهم في ظلال الأشجار الباسقة، يقف أمام باب المقصف، الأم تتكلم:

ـ نعم يا سناء، هنا كنا نتمشى، تحت هذه الأشجار، يده ما كانت تفارق يدي، هو يقول لي أنا أعشق عيونك السود، وأنا أقول له: أنا أعشق عيونك وطولك، أنا أعشقك كلك، وكان في المتنزه داخل القفص ثلاث غزالات، عيونها سود مكحولة، وكان هناك قفص جميل فيه طائر الطاووس، هو يقول طائر الطاووس أجمل، وأنا أقول له: لأ، الغزالات أجمل، ثم نمضي لنسير في الممر تحت أشجار الصنوبر، في شارع فيصل، نروح ونجيء، ونروح ونجيء، متلاصقين، يدي في يده، كتفه بكتفي، مثل طائرين أليفين.

ويفتح الدكتور منير الباب، ويهم بالنزول، الأم تستوقفه:

ـ لا تنزل، يا منير، عد بي إلى البيت، أنا بخير وعافية.

الدكتور منير يتكلم:

ـ يا أمي، أرجوك، دعينا ندخل جميعاً إلى المقصف، لنتناول فنجان قهوة، أو لنذهب إلى المستشفى.

ـ لا يا ولدي، أنا سأرجع إلى البيت، أنا بخير، اطمئن، لن أموت، أوصلني إلى البيت، ارجع أنت والدكتور هشام إلى المشفى، وأنت يا سناء ارجعي إلى بيتك وزوجك وأولادك، ثلاثة أسابيع وأنت عندي، تركت بيتك وأولادك، ارجعي إلى بيتك.

ويقاطعها الدكتور هشام:

ـ يا خالتي هذا شيء غير معقول، لا مشفى ولا متنزه السبيل؟ لا يمكن تركك في البيت وحدك.

الأم ترد بحدة:

ـ لا يا هشام، أنا في البيت ومعي روحه، صورته على الجدار، قدامها سوف أقعد وأشرب قهوتي، اتركوني وحدي أرجوكم، أريد البقاء وحدي.

ويتكلم الدكتور هشام:

ـ أنا مصر على ذهابك للمشفى.

ويتكلم الدكتور منير:

ـ أمي بخير، وصحتها جيدة، لا تقلق، هي ترتاح إذا حققت ما بنفسها، لا تجبرها على شيء، أنا أعرفها.

الأم تتابع كلامها:

ـ وأنت يا دكتور منير، المرضى هناك في الانتظار، عشرة أيام وتنتهي إجازتك، وترجع إلى السويد، ساعد أهل بلدك قبل سفرك، عالج أكبر عدد من المرضى، أنا مقتنعة الآن بأنه كان يجب قلع تلك الأشجار منذ زمن بعيد، كان لا بد من تعريض الشارع، من أجل الجيل الجديد، من أجل الأجيال القادمة، نحن دورنا انتهى، ارجعي يا سناء إلى بيتك، وأنت يا هشام ويا منير، المرضى في المشفى بالانتظار، أنا بألف خير، عيشوا أيامكم كلها بالحب، مثل ما عشتها أنا، عيشوا بأجمل مما عشت أنا.

السائق يلتفت إلى الأم ليقول لها:

ـ اسمحي لي يا خالتي، أريد تهنئتك بأولادك، وبهذه الروح العظيمة، أنت في الحقيقة أم عظيمة، وزوجة وفية، مثلك قليل،

ومثلك ما عاد الزمان يخلف، أنت عشت أجمل حب، أهنئك، أنا عندي زوجة، الآن عرفت كم هي صابرة، وكم أنا ظالم، في السنة لا أخرج معها إلا مرة أو مرتين، هي مدفونة في البيت مع الأولاد، وأنا محبوس هنا في السيارة، ومحكوم علي بالأشغال الشاقة، صدقيني، يا خالة، في أيام الخطبة جئت بها مرة واحدة إلى متنزه السبيل، ومررنا بسيارتي هذه تحت أشجار الصنوبر، كان على شمالي ممر العشاق والمحبين، مثلما سميته أنت، ولكن ما انتبهت إليه، ذهني مشغول دائماً بزحام السيارات، عشرين أمامي، وعشرة ورائي، وسائق يتجاوزني من اليمين، وآخر يتجاوزني من الشمال، وخاصة في هذه الأيام، وعيوني تبحث عن ركاب، أنا محكوم بالسجن في سيارتي، وبالأشغال الشاقة، واعذريني إذا صارحتك أكثر، ماذا أقول أنا خجل من نفسي، سامحيني إذا صارحتك، واعترفت لك، اليوم عرفت قيمة هذا الشارع، ألف مرة مررت به، وما قدرت قيمته، ولكن يا للخسارة، بعد ما قلعوا الأشجار، وفات الأوان.

الأم تقول للسائق:

ـ لا يا ولدي، ما فات الأوان، أنت في عز الشباب، الآن بعد ما توصلني، ارجع إلى زوجتك، خذها إلى متنزه السبيل، اقعد معها تحت الأشجار أمام البركة، حاول الاستمتاع بكل شيء.

السائق يتكلم:

ـ لك وعد، والله شاهد على ما أقول، كل يوم جمعة، يوم عطلتي، سآتي بها والأولاد إلى متنزه السبيل، الآن عرفت معنى الحياة وقيمتها، والآن اسمحي لي، إلى أين أوصلك؟

الأم تكلم السائق:

ـ أوصلني أنا أول الأمر إلى البيت، من حيث أخذتني، هذه هي الحياة، نلف وندور ثم نعود إلى حيث بدأنا، وأوصل بعدها ابنتي إلى بيتها، في طريقك، في الشارع الأول المتفرع من شارع النيل، ثم أوصل ابني منير وابني الثاني هشام إلى مشفى شيحان، الدكتور

هشام مثل ولدي، وأتمنى أن تجعل الآن طريق العودة يمر بشارع فيصل.

السائق يبتسم، يلتفت إلى الأم ليقول لها:

ـ وهذا ما كنت أتمناه،بعد ما سمعت حديثك، ولكن الشارع أصبح في اتجاه واحد، هو للذهاب فقط، وليس للعودة، إذا أردت التفقت ودرت فيه مرتين أو ثلاث مرات، ولكن لا بد في النهاية من العودة إلى البيت من طريق آخر، موازٍ لشارع فيصل، وليس من خلاله.

الأم تعلق:

ـ إيه، كم ذهبت فيه وجئت، ولكن اليوم أصبح للذهاب فقط، لا أمل للعودة .

الغزالة

في ساحة أمام الفندق ينتصب تمثال غزالة
في ساحة مجاورة يشرئب غزال حيّ

ذكرى زيارة طرابلس ليبيا

-1-

تقف شامخة، رافعة رأسها إلى الأعلى، مثل سحابة، تنظر إلى ما وراء آفاق بعيدة، لا يُعرف ما تريد، ولا يُحَدّ، جيدها أتلع، مثل موسيقا، عيناها سوداوان، مثل شذى المساء، تكاد تقول كل شيء، ولكنها لا تقول، تكاد تقفز، تكاد تحلّق، تكاد تطير، ولكن أقدامها الرقيقة الناعمة راسخة في الأرض، تقول: " أنا هنا دائماً، لا أتزحزح ولا أحول، متشبثة بالأرض، متمسكة بالحضور، راسخة الوجود".

هي أول ما لفت نظرنا ونحن نصل إلى الفندق عند منتصف الليل، وفور دخولي إلى غرفتي توجهت إلى النافذة لعلي أراها، ولكن غرفتي كانت تطل على الجهة المقابلة، فكرت في النزول ليلاً للتمتع برؤيتها، ولكني كنت مرهقاً جداً، وكان عليّ أن أتصل بزوجتي لأطمئنها إلى وصولي، فقد تأخر إقلاع الطائرة ساعة ونصف الساعة.

في الصباح وبعد تناول الإفطار بدا أن رغبة أعضاء الفوج السياحي واحدة، وهي رؤية الغزالة الواقفة في الميدان أمام الفندق قبل الذهاب إلى أي مكان آخر.

جسمها الناعم المتناسق يعزف موسيقاه بصمت وهدوء، من غير إيقاع ولا لحن، يرمي ظله، ينشر عطره، جسم ناحل، مثل شمعة، تشتعل دائماً، لا تذوب، هي هنا وحيدة، لا يعرف أحد منذ متى وإلى متى؟ لا أحد يعرف لماذا هي متربّصة بهذا المكان؟ ماذا تنتظر؟ من أين جاءت وإلى أين ستذهب؟

وحدها في وسط الساحة تقف، ظهرها إلى الفندق الكبير، وجهها إلى البحر، تستقبل السائحين والزائرين والعابرين، بعضهم يقف يتأمل، بعضهم يلقي نظرة ويمر، بعضهم يلتقط صورة، بعضهم يسأل وبعضهم لا يسأل.

هي واقفة أبداً، متحركة ساكنة، صامتة متكلمة، حية متجمدة.

وألتفت إلى "وحيدة" رفيقتي في الفوج السياحي أسألها:

ـ كل الأنظار مهتمة بها، هل تغارين منها؟

ـ وهل أغار من تمثال؟.

-2-

سوق التحف والهدايا والصناعات القديمة تحتوينا، نسعد فيها بالزحام، هي ضيقة ومزدحمة، سقفها محدودب، نحس فيها بالمتعة والأمان، تحنو علينا مثل جدة عجوز، نلتجئ إليها، نلتمس لديها الدفء، نطمع في الهدايا وقطع الحلوى التي تخبئها لأجلنا.

هذا حذاء قديم مزركش، وهذه مدية طارقية، وهذا رحل كان يوضع على متن الناقة، وهذا عقال بعير، وهذه بيضة نعام، وهذه عقرب سوداء محفوظة داخل علبة زجاجية، الصحراء بين أيدينا، ونحن في قلب العاصمة طرابلس الغرب.

تقف "وحيدة " أمام جلد غزال، أناملها السمراء الناعمة تلمس الجلد الرقيق، تمسح على الشعر الأملس، الجلد يرتعش، وقلب الغزال يخفق، ألتفت إليها.

ـ لأجلكِ أنا مستعد لأدفع فيه الثمن الذي يطلبه هذا البائع العجوز.

ترد عليّ، وأنا لا أكاد أميز، أجادة هي أم عابثة:

ـ لو ذهبتَ إلى الغابة، وعدتَ مثخناً بالجراح، لتلقيَ جلدَ الغزال بين قدميّ لما قبلتُه منك.

ـ لماذا؟

ـ ما ذا سأفعل بجلد غزال ميت؟ يمكنك أن تشتريه أنت لنفسك لتصلي عليه.

- 3 -

من السوق القديمة نخرج، نجتاز الشارع المزدحم بالسيارات إلى الساحة الخضراء. أذهل، كيف رأته؟ تركتنا وأسرعت إليه، لقد عثرت على بغيتها.

- تعالوا انظروا .

نتحلق حولها، وهي تداعب غزالاً، تقترب منه، يهجم عليها، يود لو ينطحها بقرنيه المنتصبين الناعمين المدببين، تود لو تُسْلِمَه جانبها ليطعنها في فخذها، تودّ لو تميل عليه ليغرس قرنه في ضلعها، ولكنها تتّقيه، تصدّ عنه، ثم تعود إليه، لتداعب جيده الناعم، وتثور رغبتُه فيهجم عليها، يكاد يطعنها بقرنه، تسعد به، تلمس القرن المنتصب، تمسحه بأناملها، تحنو عليه، تمد يدها إلى فمه، يتشمم أناملها السمراء الناعمة، تسري في عروقها رعشة الدفء، ولهاث الأنفاس الحارة، يجمح نحوها، يشب، يثب، يكاد يولج قرنيه في صدرها، وهي راكعة أمامه، والحبل المشدود إلى قدمه الناحلة يمنعه من الوصول إليها، تنظر إلى الحبل، تود لو تقطعه، تود لو يقدر عليه فيمزقه، وتلوب، تبحث هنا وهناك، تعثر على أعشاب وحشائش قريبة منه، تحمل جُذاذة، تدنو منه، تود لو تطعمه كبدها، لو تمنحه ذاتها، كأنها أمه تحنو عليه، ويهجم عليها، في قرنيه شوق للطعن، أكثر مما في جوفه من جوع، وتقدّم له على راحتها المبسوطة جُذاذة الحشائش، يتشمّم ثانية أناملها، يلعقها، تضحك، تحلّق، كالغزالة، تعانق الأفق، تطير كالسحابة.

المصور يقترب منا، أدنو منها، أقف إلى جوارها، وهي تداعب قرن الغزال:

- تعال، التقط لنا صورة مع الغزال.

تنهض من أمام الغزال غاضبة، تدفعني في صدري، تبتعد عني وعن الغزال.

ـ كم أنت قاس، وبليد، ما كنت أحس أني في ساحة أمام غزال مقيد بالحبل يرتزق من ورائه مصور جشع يستغل السائحين، أنت أيقظتني من حلمي.

- 4 -

الحافلة، ونحن نغادر طرابلس، تلف بنا حول الساحة، الغزالة في وسط الميدان، أرى في عينيها دمعتين، فمها يكاد ينطق، رأسها يشرئب نحو الأفق، تود لو تنطلق، لو تحلق، لو تطير، ولكن أقدامها مشدودة إلى الأرض.

- 5 -

ألتفت إلى "وحيدة"، وهي إلى جواري في الحافلة:

ـ ما أمنيتك ونحن نغادر طرابلس؟

ـ البقاء هناك في الساحة، مع الغزال.

ـ وهذه الغزالة؟

ـ ابق أنت معها.

ـ أنا أتمنى أن أكون أنا ذاك الغزال، وأن تكوني أنت هذه الغزالة.

الأعمدة

إلى "وحيدة"...وأظنها لن تقرأها
ذكرى زيارة آثار رومانية في طرابلس ليبيا

الجو ساخن، والشمس حادة، وللعشب الأصفر اليابس رائحة جسد عطش، والتربة حمراء متشققة تنفث أواراً. لا يمكن أن أتركها، أدنو منها، أحاول مسك يدها، فتفلت مني، تتقافز بين الحجارة والتراب.

ـ لا أقول تنبهي، بل أتمنى أن تقعي؟

ـ ولماذا؟

ـ كي أحملك .

ـ اطمئن لن أقع.

تيجان مزخرفة وعقود هوت فانغرست في الأرض، سئمت من السمو والهواء، اشتاقت إلى الدنو والتراب، تودّ لو تعود إلى رحمها: الأرض، الفوج السياحي متناثر في المدى الرحب، بين كتل الآثار، ووراء الأعمدة الباسقة، أماكن الاختباء كثيرة، وفرص التخفي مواتية.

في فسحة مشجرة في الحديقة، كأنها غابة صغيرة، أنطلق أنا وأولاد خالاتي، أمهاتنا هناك في ظل شجرة كبيرة منهمكات في إعداد التبولة، رجاء ابنة خالتي في عمري، أو أكبر قليلاً، " تعالوا لنلعب لعبة العسكر والحرامية"، " تعالي لنختبئ خلف شجرة الدفلى هناك"،"ولكنها بعيدة، ولن يروننا، أخشى أن نضيع، أخشى أن ينسونا "، أجذبها من يدها " هذا أفضل "، وخلف شجرة الدفلى الملتفة الأغصان الكثيفة الأوراق ينفحني جسدها شذاه، أحس أننا وحدنا، تغيب الحديقة والألوان، لا شيء في الكون، كأنني نوح بعد الطوفان، أضمها وأقبلها، وتفلت مني، لتركض نحو إخوتها، وأرى الحديقة غارقة بالناس.

تجري بين الأعمدة المنتصبة إلى أعلى، بين عمود وعمود تركض، وعند كل عمود تقف هنيهة، لتلفه، تدور حوله، ثم تنطلق في خط متعرج، أركض في إثرها، وأنا أحس بالظمأ، الأرض تتّقد، العشب الأصفر اليابس يكاد يشتعل، الصهد يصَّاعد، الشمس تحرقني.

ـ عليك أن تنتبهي، فهنا تعيش أفاع كثيرة، تحت الشمس الحارقة تغدو أكثر خطورة.

تقف عند عمود، تستند إليه، تلتفت إليّ.

ـ ليس هنا سوى أفعى واحدة، ولكنها أخطر من ألف أفعى، انظر، دمرت القصر كله والأروقة، لم تُبْق تاجاً فوق عمود، هل تريد أن أوقع الآن هذا العمود فوق الأرض؟.

ـ ولماذا اخترت هذا العمود بالذات؟

تنظر إليه، ترفع رأسها إلى أعلى، تظلل عينيها بيد، تحميهما من الشمس، تلف العمود بيد.

ـ هذا أعلى عمود، وهو منتصب إلى أعلى بقوة، كأنه يريد أن يثقب عين الشمس.

تتلمس العمود براحة يدها، والشمس تتقد، وأنا أتقد ظمأ.

ـ انظر إلى عروق الذهب المتمشية فيه، هي ذهب حقيقي، هي دافئة تنبض.

أقترب منها وأنا ألهث، تختبئ وراء العمود وهي تحتضنه، أحاول الإمساك بها، تدور حول العمود، ليت لي رشفة ماء، الظمأ يقتلني.

ـ تعالي لنحفر عليه اسمينا.

ـ أنا تركت عليه بصماتي هذا يكفيني.

ـ بل سنحفر عليه اسمينا، حتى إذا زرنا المكان مرة أخرى عرفناه.

ـ أنا أعرفه، لن أنساه، مررت قبله بأربعين عموداً، هو الواحد بعد الأربعين.

في الاستقبال قال لي عامل الفندق: " غرفتك في الطابق العاشر، رقمها اثنان وعشرون"، ثم قال لها: " أنت بجوار الأستاذ، غرفتك الحادية والأربعون"، التفتُّ أنا إليها وقلت لها: " أنا في الحادية والأربعين، وأنت في الثانية والعشرين "، ضحك عامل الاستقبال، وقال لها: " لك كل الغرف، وهذه مفاتيحها، افتحيها كلها، إلا الغرفة الحادية والأربعين، أحذرك، لا تفتحيها، وعلى كل حال هذا هو مفتاحها ".

تعدو، تنحدر، الشمس تثقب رأسي، الصهد يلتهمني، أزداد عطشاً.

- ياه، تعال انظر.

نطل معاً على وهدة منخفضة بين هضبتين من تراب غضاري أملس ناعم، وفي وسطها ناووس قبر حجري مفتوح، جدرانه مزخرفة بعناقيد وأوراق كرمة، ننحدر معاً، أمسك يدها، ننزلق فوق التراب الغضاري الناعم، الوهدة تنّور مشتعل، أمام القبر المفتوح نقف، أتلمس حواف القبر، أتلمس رخامه، ساخن كالنار، رطب كالندى، ظمئي يزداد، أكاد أعتصر عناقيده، أحس بالخمرة تسيل من العناقيد.

- كم أود لو أنام في هذا القبر.

ألتصق بجداره الواطئ، أطل عليه، وظمئي يزداد.

- هو قبري أنا، أحس أني سأنام فيه.

جدّي هناك، أنزلوه في القبر، وقعدوا حوله يقرؤون سورة يس، وأنا بعيد عنهم، أعتلي أحد القبور، أرمقهم من بعيد، لم أفهم معنى أن يموت جدي، أنا على يقين أنه سيأتي مساء، وسوف أسمع صوت مفاتيحه، وهو يصعد الدرج، وأحس به يفتح الباب، وأقبل يده الكبيرة، أتحسس بفمي الشعرات البيض فوق ظاهر يده، ينفحني عطر الورد شذاه، لم أحزن، الشمس كانت تميل إلى الأفق الغربي، تذكرت أغنية " شمس الأصيل "، الشمس هنا في المقبرة تلون شاهدات القبور بالذهب، رجاء تعتلي قبراً غير بعيد، أركض نحوها، هي فوق قبر

عال، له ثلاث مصطبات مرمرية، أحس أن ثوبها أقصر مما هو عليه، والشمس تلسع ظهري، أرقى فوق القبر، أقف قبالتها، الشاهدة الحجرية للقبر بيني وبينها، تأتيني أنفاسها دافئة عطرة، ومن بعيد يصلني صوت الرجال وهم يقرؤون سورة يس، أصوات خشنة جافة، وفي طريق العودة إلى البيت تحشرني أمي في السيارة إلى جانب ابنة خالتي، ثم تقعد بجواري، يغمرني دفء الجسد، ألقي نظرة على المقبرة والشمس تكاد تغيب عنها، السماء ساطعة متألقة، جدي تقي ورع، والله راض عنه، أبتهج لسرعة السيارة، ولكن أود ألا نصل إلى البيت سريعاً، وينعطف السائق، أحس أني هرست جسد رجاء.

وأرفع قدمي، أرفعها فوق جدار القبر المرمري المفتوح، ألف على الجدار ساقي، كما تلتف الساق بالساق، أمتطي الجدار، كأنني فوق صهوة حصان، قَدَم في ناووس القبر، وأخرى في الأرض، تمسك بيدي مذعورة.

الشمس تزداد ضراوة، الصهد يعلو مثل زفير نمر جائع، الأرض تتشقق عطشاً.

ـ ماذا تفعل؟

ـ سأدخل في هذا الناووس، انظري كم هو جميل، بل هو دافئ وحنون.

ـ أرجوك لا تفعل.

ـ سأدخل، وسوف أستلقي، وأنام.

ليت لي قطرة ماء، كيف يصمد الحجر والرمل هنا تحت الشمس، من حق التيجان والأعمدة أن تنهار، لا بد أن يسقط كل شيء تحت هذا الوهج.

ـ اسمع، مرة على خشبة المسرح كان في العرض تابوت، وكان على أحد الممثلين أن يستلقي فيه، ذعر الجميع، اندفع أحدهم، واستلقى فيه، رفعوه، أدَّوْا الدور، وحين أنزلوه وجدوه ميتاً.

ـ وأنا أود لو أموت.

ـ أرجوك، لا تمزح.

وأضع رجلي الأخرى في القبر، أوليها ظهري.

ـ سأدخل، سأستريح، سأنام.

وتلقني من وراء بكلتا يديها، تشدهما على صدري، تطوقني. في ظهري يشتعل نهداها، وأنفاسها الحرّى تسقط خلف أذني، وشعرها يتهادى على كتفي.

ـ لا، أرجوك، لا تفعل، لا تتركني وحدي.

ـ تعالي لنموت معاً.

أحاول ضمها إلي، فتفلت مني، وتعدو لتصعد الهضبة. تطل عليَّ من فوق الهضبة، شامخة، والشمس من ورائها ترسل شعاعاتها الذهبية، فتتألق، كأنها أيقونة مقدسة، الكون كله من أطرافه كلها متجه إليها، هي مركز الدائرة، وهي محيطها.

ـ ما دمت مصمماً على الموت، قل لي ما هي رغبتك الأخيرة؟

ـ زلزال عظيم يدمر العالم، فلا يبقى أحد على وجه الأرض سوى أنت وأنا.

ـ لماذا؟

ـ لنبقى وحدنا معاً.

ـ ها نحن معاً وحدنا.

ـ ولكن العالم كله مليء بالأشرار.

ـ هل تريد إنجاب ذرية جديدة؟

ـ ربما.

ـ لن تكون أفضل من المليارات الستة التي تعمر الآن الأرض، حلم قديم، لا أوافقك عليه.

ـ لعل الدمار ينهي الحروب على الأقل.

ـ أنت، ولو كنت وحدك، سوف تشعل ألف حرب.

ـ لذلك أود أن أموت.

ـ موتك لن يغير في العالم أي شيء، كل يوم يموت الآلاف.

ـ ما حلمكِ أنتِ قبل أن تموتي؟

الشمس تثقب العظم مني حتى النخاع، تمتص الدم من عروقي.

أتزحزح قليلاً وأنا واقف داخل الناووس، في الحضيض من الوهدة، لعلي أتفيّأ ظل العمود المنتصب في أعلى الهضبة، أو لعلي أتفيّأ ظلها، العمود يترنح ويتمايل أو هي، لست أدري، أنا بحاجة إلى ظل.

ـ أنا لا أفكر في الموت، مت أنت في قبرك إذا شئت، حلمي أنا أن أرقى هذا العمود، لأعيش على التاج الذي يعلوه إلى الأبد، لا آكل ولا أشرب.

ـ ومن غير حب؟

ـ من غير حب ومن غير حرب.

الظل يجتاحني، والشمس أراها تعتم، هذا جميل، ولكن يجب أن أقعد في الناووس، أو أستلقي، لعلي أحتمي بجداره. تنزلق من أعلى الهضبة نحوي، هل تستطيع رفع غطاء الناووس الحجري الذي ينغلق فوقي؟

القبر مملوء إلى حافته بالحليب، رجاء تسبح فيه، تغرق، تختنق، أقف أمام القاضي، الميزان وراءه مائل، عيناه كعيني أبي، العمود يسقط على رأسه، وفي جدار القبر ثقب، ينفر منه الماء، زوجتي كسرت القبر، وأوقعت العمود، وحطمته.

وجوه الفوج السياحي تطل عليَّ، كيف اهتدوا إلينا، ألم نكن وحدنا معاً؟ الشمس فوقي تبتسم، هي لطيفة الآن وهادئة، لا شعاع لها، ولا حر فيها.

ـ ابتعدوا عنه، افسحوا له المجال ليتنفس.

ـ كيف سقط داخل هذا القبر الحجري؟

ـ علينا أن ننقله إلى المستشفى بسرعة.

ـ لا شك أنها ضربة شمس.

من بين الوجوه أرى وجه "وحيدة"، وهي تطل عليَّ، كالغزالة.

المحتوى

قطعة شيكولاتة في باب الجنين		5
الشاب وبائع العطور		16
في الطائرة		19
الحذاء والمعطف		23
الكهف		27
المأمون 67 - 73		30
المدير أخي		40
المنضدة في مدخل المديرية		62
صندويشة فلافل		70
صندوق البريد		79
المقر الرئيسي للمديرية		82
جمجمة محطمة		85
العرض مستمر		89
هو وأخوه		92
مدينة الثلج		97
هو وحده دائماً		100
عند نهاية الاجتماع		104
نوافذ		106
ثلاثة أصابع من القدم		109
جولة في شارع فيصل		115
الغزالة		132
الأعمدة		136

الدكتور أحمد زياد مُحَبِّك

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب

السيرة الشخصية :

- من مواليد مدينة حلب عام 1949
- الإجازة في اللغة العربية جامعة حلب عام 1972.
- دبلوم الدراسات العليا، جامعة دمشق، 1973.
- الماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية في جامعة حلب، 1981
- الدكتوراه في الآداب من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، 1984
- معيد في كلية الآداب بجامعة حلب 1977.
- مدرس في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة حلب 1984.
- أستاذ مساعد 1990.
- أستاذ 1995 .
- رئيس قسم اللغة العربية 1998 - 2000
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام 1983

المؤلفات المنشورة :

دراسات

- **المسرح في سورية**، دمشق، 1982
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي**، دمشق، 1989
- **دراسات في المسرحية العربية**، حلب، 1997
- **دروب الشعر العربي الحديث**، حلب 2000
- **من الأسطورة إلى القصة القصيرة**، دمشق،2001
- **قصائد مقارنة**، حلب،2001.
- **انكسارات**، بيروت،2004.
- **متعة الرواية**، بيروت، 2005.

- **من التراث الشعبي**، بيروت، 2005.
- **قصيدة النثر**، دمشق، 2007.
- **قراءات في الشعر العربي الحديث**، حلب، 2007.
- **نوافذ وشرفات**، حلب، 2007.

قصص قصيرة:

يوم لرجل واحد، دمشق، 1986

- **حجارة أرضنا**، دمشق، 1989
- **الكوبرا تصنع العسل**، حلب، 1996
- **بدر الزمان**، حلب، 1996
- **حلم الأجفان المطبقة**، دمشق، 1996
- **عريشة الياسمين**، حلب، 1996
- **لأنكِ معي**، دمشق، 2000.
- **طعم العصافير**، حلب، 2001
- **العودة إلى البحر**، دمشق،2001.
- **الرحيل من أجل مها**، دمشق، 2003..
- **وردات في الليل الأخير**، بيروت، 2005.
- **ريش نعام، حلب، 2007**
- **نجوم صغيرة**، حلب، 2008
- **اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين**، حلب، 2009.

عنوان المراسلة :
البريد العادي : كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية
البريد الإلكتروني : mohabek @ scs-net.org
هاتف المنزل : 00963 21 2642132
الجوال: 00963944928792